FRANZ KAFKA

رسائل

فرانز كافكا

رسالة إلى الوالد

ترجمة:
يوسف عطا الطريفي



رسالة إلى الوالد



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية **12**

هاتف **00962 6 4638688** ، فاكس **00962 6 4657445**

ص.ب: **7855** ، عمّان **11118** ، الأردنّ

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية **34**

◆

رسالة إلى الوالد/ رسائل

فرانز كافكا/ تشيكوسلوفاكيا

ترجمة: يوسف عطا الطريفي/ الأردنّ

◆

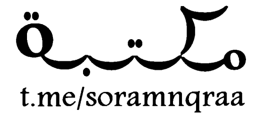
الطبعة العربيّة الأولى، 2017

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف **00962 7 95297109**

◆

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف **00962 7 95349156**



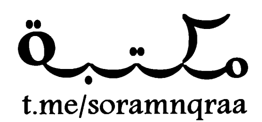
الترقيم الدولي: ISBN 978-6589-09-014-4



فرانز كافكا

رسالة إلى الوالد

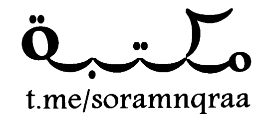
ترجمة: يوسف عطا الطريفي





فرانز كافكا

(1924-1883)



وُلد فرانز كافكا في يوليو (تموز عام 1883 بالقرب من ساحة المدينة القديمة في براغ، والتي كانت آنذاك جزءاً من الإمبراطورية النمساوية. لعائلة ألمانية من الطبقة الوسطى تنحدر من أصول يهودية إشكنازية، وكان الابن الرابع لجاكوب كافكا، الذي نشأ في الريف في ظروف فقر مدقع، لكنه بنشاطه ودأبه ترقى بعد انتقاله إلى المدينة حتى أصبح تاجراً ثرياً. أما والدته «يولي» فقد نشأت في براغ لأسرة ذات مستوى ثقافي رفيع. وكان والدها جاكوب لوي تاجراً ناجحاً في «بودبرادي» وقد تلقت تعليماً أفضل بكثير من زوجها، ولذلك حصلت تناقضات كبيرة بينها وبين زوجها. ومع ذلك فقد شجعا أولادهما على تعلّم اللغة الألمانية العليا.

أمضى فرانز كافكا طفولته شبه وحيد، حيث إن والديه كان يغيبان عن البيت لانشغالهما بالأعمال التجارية، وخاصة والدته التي كانت تعمل قرابة الاثنتي عشرة ساعة متواصلة، فكانت تترك أبناءها للمربين والخدم، ولذلك كانت علاقة فرانز بوالده كما وصفها في كتابه «رسالة إلى الوالد» مضطربة، وقد ذكر تأثره العميق

بشخصية والده الاستبدادية، على عكس شخصية والدته التي وصفها «هادئة خجولة».

تلقى فرانز في صغره دروساً دينية يهودية لدى معلمة، انتهت عندما بلغ الثالثة عشرة، وقيل أنه لم يكن يحب الذهاب إلى الكنيس اليهودي مطلقاً، لكنه كان يُرغم على الذهاب مع والده أربعة أيام فقط في السنة. وكان قد ارتاد مدرسة ابتدائية ألمانية في «سوق اللحوم»، وفي عام 1893 التحق بمدرسة ثانوية أكاديمية في داخل قصر كينسكي في ساحة المدينة القديمة، وكانت اللغة الألمانية هي لغة التدريس فيها، ومع ذلك كان قادراً على التحدث والكتابة باللغة التشيكية، وقد أمضى فيها مدة ثماني سنوات وتخرج منها عام 1901، حيث التحق بجامعة شارلز فيردناند الألمانية في براغ.

بدأ كافكا بدراسة الكيمياء، وبعد أسبوعين تحول إلى دراسة القانون، مع أنه لم يكن مرتاحاً لهذا المجال، لكنه كان أفضل الاحتمالات للعمل والتوظيف، وهذا ما سعى إليه والده، وخلال دراسته فقد أخذ مساقات في تاريخ الفن والدراسات الألمانية. كما أنه انضم إلى نادٍ طلابي عُرف باسم «قاعة قراءة ومحاضرات الطلاب الألمان»، وكان هذا النادي يقوم على تنظيم عدد من النشاطات الطلابية الأدبية، وقد تعرف فيها على الصحفي فيليكس فيلتش الذي درس الفلسفة، والممثل المسرحي إسحاق لوي من وارسو، والكاتبان أوسكار باوم وفرانس فرفل.

ومع نهاية العام الدراسي، التقى كافكا بماكس برود الذي كان زميله في دراسة القانون، والذي أصبح فيما بعد صديقه الودود مدى

الحياة، حيث لاحظ ماكس رزانة كافكا في التفكير وقلة كلامه. ولما كان كافكا متعطشاً للقراءة، فقد قام هو وماكس بقراءة العديد من المؤلفات وكان منها: «حوار بروتاجوراس» من تأليف بلانو بلغته الأصلية الإغريقية، وكذلك قرءا رواية الفرنسي جوستاف فلوبير «التربية العاطفية»، وأيضاً روايته الأخرى «تجربة القديس أنطونيوس». واعتبر كافكا تيودور دوستويفسكي وجوزتاف فلوبير وفرانس جربلبار تسر وفون كلايست كإخوته في الدم، وكان إلى جانب اهتمامه بالأدب التشيكي وولع بأعمال، يوهان فون جوته.

وفي عام 1906 نال فرانز كافكا درجة الدكتوراه في القانون، لكنه أُجبِر على العمل لمدة سنة بدون أجر كخدمة إلزامية في المحاكم المدنية والجنائية. وفي عام 1908 عمل فرانز في شركة تأمين إيطالية، إلا أنه لم يكن مرتاحاً فيها بسبب ساعات العمل الطويلة، فكان من الصعب عليه الكتابة، فقدم استقالته. وبعد أسبوعين وجد عملاً لدى مؤسسة التأمين على حوادث العُمّال، وقد سمح له الوقت فيها بممارسة الكتابة بحرية، وقد اطلع أثناء عمله على أوضاع العُمّال في المؤسسات والمصانع وعلى التعويضات العُمّالية للمصابين. وكانت المؤسسة قد أرسلته إلى بوهيميا والتي كانت تعتبر ثاني أكبر منطقة صناعية آنذاك في أوروبا، ولما كان ناجحاً في عمله الوظيفي، تمت ترقيته بسرعة حتى وصل إلى مركز سكرتير المؤسسة، وكانت أعماله قد تضمنت التعامل والتحقيق في طلبات التعويض وكتابة التقارير والتعامل مع رجال الأعمال، وهكذا فقد اعتبر من كبار كُتّاب عصره في ألمانيا، لأنه كان الكاتب الوحيد الذي يملك تصوراً محدداً

للظروف في المعامل ووضع العُمّال فيها، خاصة وأنه كان يكتب تقارير يعالج فيها الإجراءات الوقائية للحوادث.

وفي عام 1911، اتفق مع زوج أخته «إيلي» على العمل لدى أول مصنع للإسبست في براغ، وكان في البداية سعيداً بعمله الجديد، حيث خصص له الوقت الكافي. لكنه وفي وقت لاحق استاء من تعديات وقت عمله على الوقت الذي خصصه للكتابة، خاصة وأنه في هذه الفترة اهتم بالمسرح اليديشي، وذلك بعد مشاهدة مسرحية يديشية، وأصبح مولعاً بالأدب اليديشي وباللغة اليديشية وهكذا اكتشف نقطة انطلاقته.

حاول كافكا الانضمام إلى الجيش، لكن مرض السل منعه من ذلك، وبسبب هذا المرض أحيل إلى التقاعد من عمله، وفي ذلك الوقت لم يكن العلاج متوفراً لحالته، فازدادت سوءاً مما دفعه في مارس 1924 إلى العودة من برلين إلى براغ، لتقوم العائلة برعايته والاعتناء به وخاصة أخته «أوتلا»، لكنه لم يستطع تحمل آلامه، فذهب إلى مصحة بالقرب من ڤيينا، حيث أن المرض أصاب حنجرته مما جعل الأكل مؤلماً له، ولم يكن هناك طريقة لتغذية جسده، وفي الحادي عشر من شهر يونيو 1924، توفي فرانز كافكا، ونُقلت جثته إلى براغ حيث دُفن هناك.

لم يكن كافكا خلال فترة حياته معروفاً، ولم تكن الشهرة تستهويه، لكنه اشتهر بعد وفاته بفضل صديقه ماكس برود، الذي نشر أعماله، وقد ذكر ماكس أن كافكا لم ينهِ أيّاً من رواياته، وأنه قد أحرق عدداً كبيراً من أعماله، وكان أكثر ما أحرقه مما كتبه خلال فترة

وجوده في برلين، ولم يكن له اتصالات بالفئة المثقفة في براغ، لكنه أقام علاقات طيبة مع التشيكيين، وكان يحضر أغلب الاجتماعات السياسية التي يعقدها الديمقراطيون والاشتراكيون والفوضويون، وكان يميل طوال حياته إلى الطب الطبيعي وما يرتبط به لأنه كان نباتياً.

وكان ثمة صالوناً ثقافياً في الوسط الألماني في براغ، يلتقي فيه علماء كبار ونخبة فكرية عالية، وقد استمع فرانز فيه إلى سلسلة من المحاضرات واشترك في حوارات على أعلى المستويات الثقافية، وكان من ضيوف هذا الصالون «ألبرت آينشتاين»، وأصدقاء من علماء الرياضيات والفيزياء والفلاسفة. فكان فرانز يحضر هذه الاجتماعات بانتظام وهناك فهم كافكا «النظرية النسبية» لآينشتاين و«نظرية الكم» لماكس بلاك و«التحليل النفسي» لفرويد و«نظرية الأعداد اللانهائية» لكانتور و«فلسفات هيجل وكانت ونيتشه».

وبين الأعوام 1910-1912 تنقل كافكا بين باريس، وبرلين وشمال إيطاليا وزيوريخ وڤيينا والبندقية وغيرها، وفي عام 1912 تعرف على «فيليس باور»، وفي عام 1914 عقد خطوبته عليها ثم فسخ هذه الخطوبة.

وفي عام 1917، عاود خطوبته من جديد، ولما اكتشف مرضه فسخ الخطوبة للمرة الثانية، وفي عام 1918 تعرف على «يولي فوريتسك»، وخطبها عام 1919، وفي عام 1920 فسخ خطوبته، ثم تعرف على الفتاة «دورا ديامنت» وذلك في عام 1922 وعاش معها في برلين، ويبدو أنهما توفيا في السنة نفسها وبالمرض نفسه.

كتب كافكا الرواية والقصة القصيرة والرسائل إلى جانب المقالات والمقابلات الصحفية، وكان من رواياته: المسخ، والقلعة، والمحاكمة، والمفقود، وأمريكا. وكان من رسائله المشهورة «رسالة إلى الوالد»، وكتب بعض الرسائل بالتشيكية، ومنها تلك الرسالة التي أرسلها إلى «ميلينا جيسينسكا»، ورسالة أخرى أرسلها إلى فيليس باور، وصف فيها أعمال كلايست بأنها مخيفة، وقد صنف الباحثون والمختصون أعماله في مجموعات على النحو الآتي:

- نأمل: وهي من أعمال كافكا المنشورة وتضم ثماني قصص قصيرة كانت هي أول أعماله، ونشرت بين 1904-1912، ومن بينها قصته «وصف المعركة».
- طبيب ريفي: وهي المجموعة الثانية، وتضم أربع عشرة قصة قصيرة كتبها عام 1916، وكانت إحدى هذه المجموعة قصة تحمل اسم المجموعة.
- سور الصين العظيم: وتضم إحدى وعشرين قطعة أدبية كتبها بين 1917-1924، ونشرت في برلين بعد وفاته، ومنها «الحكم» عام 1922.
- فنان جوع: وهي آخر المجموعات وتضم أربع قصص قصيرة وقد أعدها للنشر قبل وفاته عام 1924، وكان من بينها «في مستعمرة العقاب».

وهكذا نجده أمضى وقت فراغه في الكتابة الأدبية التي رأى فيها هدف وجوهر حياته، ورغم أن حياته كانت مليئة بالمتاعب بما فيها علاقته مع أبيه، يراه البعض أنه شخص يصعب عليه إتمام

الأمور، وهو الأمر الذي لفت الانتباه إلى كتاباته، حيث كان يجد صعوبة في إنهاء إنتاجاته، وهذا ما يظهر جلياً على بعض أعماله الأدبية.

أما رسالته لأبيه، وهي عنوان كتابه:

كتب كافكا مجموعة من الرسائل إلى أصدقائه وأخواته، وكان منها رسائله إلى أخته «أوتلا» وذلك في تشرين الثاني عام 1919، تحدث فيها عن الرسالة التي كانت تعيش في ذهنه، وكان يعتذر عن استقبال زواره حتى يستطيع أن ينهي هذه الرسالة «رسالة إلى الوالد».

كانت هذه الرسالة في الحقيقة تملك نظاماً خاصاً، وكان الغرض من هذا النظام هو جعل ذرائعه لها حتى تكون مقنعة تماماً، وقد بدأها بعبارة «الوالد الأعز». وقد ضمنها معلومات دقيقة ومفصلة حتى في أقل المعلومات أحياناً. وقد جاءت في نحو مائة صفحة من القطع العادي. وقد عرض خلالها قائمة تضم نقاط اتهام مختلفة. وكان منها: ممارسات والده التربوية، وشكواه من تجاهل والده لجميع شؤونه ومحاولاته الاستقلالية، وتدخله حتى في أمر دراسته وعلمه، ووصف موقف الوالد إزاء الأصدقاء المختلين بأفكارهم الغريبة المتطرفة، والغربة داخل الأسرة، وضعف الموروث الديني، وذكر فيها سلطته في جميع مجالات الحياة، ونفوذه حتى في قرارات ابنه عن الحياة والموت، ولا سيما ما يتعلق بالمسألة الكبيرة لدى فرانز، رغبته في الزواج، ويبدو أن كافكا كان يريد أن يلوم والده حتى حول ضعفه الجسدي، وقد أوضح فرانز كل هذه الأمور من حيث تصوراته وتخيلاته، وكأنه أراد أن يفهم والده كما قال في هذه الرسالة: «فمنذ أن وعيت وأنا مهتم أعمق الاهتمام بإثبات وجودي الفكري، بحيث أن كل شيء آخر كان سيان عندي».

وقد جاءت الرسالة على طبيعة الكاتب، فقد جمع فيها بين الجِدّة والهزل المبطن، وبين الاستطراد والاستدراك، وبين وضعه ووضع أخواته، إلى جانب المقارنة بين التعامل مع شخصه والتعامل مع الأغراب، وضرب لذلك الأمثال، وكان كل ذلك بلغة سهلة بسيطة مفهومة لكل قارئ، وكانت حبكتها وتعبيراتها واضحة. ومرد ذلك كله لإحساساته ومشاعره التي بدت بعلاقات الخجل والعار والهروب، وكانت نتيجة لسلطة الأب، حتى إنه أورد فيها حول هذا «كنت قد فقدت أمامك ثقتي بنفسي» وكأن الرسالة تحولت إلى محصلة تأملات حول مبادئ التربية، وكانت ممزوجة بالاستسلام للمقادير التي لا حدود لها. وقد نشرت الرسالة عام 1921، حيث تدرج فيها من طفولته حتى كتابتها، ولم ينس من توضيح موقف الأم فيها وعلاقتها الودودة مع الأب والتي وصفها ماكس برود من خلال إحدى رسائل فرانز له «امرأة هادئة». وتتجلى عظمة هذا العمل الأدبي، أنها كانت وثيقة عن بعض جوانب سيرة حياته، وقد دلّل على ذلك بتوزيعها على ثلاثة أمور: أولاً: براءة والده، وثانياً: ذنب فرانز، وثالثها: الاعتذار عما جاء في الرسالة. وهذا واضح من نهايتها. وقد استلمت الأم الرسالة، حيث إن فرانز بعث بها إليها لتقوم هي بتوصليها إلى الأب، وذلك لأسباب خاصة بالأسرة، كما هو موضح في الحوار الذي جرى داخل الرسالة، ولذلك تحتاج الرسالة إلى فهمها كنص أدبي، لأن سمة الصراحة فيها قد تحولت إلى عمل أدبي، كما أشار فرانز نفسه بأن موضوعها يدور حول: «الاستقلالية، الثقة، تنفس الصعداء، الأمان، الإنقاذ، التهدئة، بل والحقيقة».

الوالد الأعز...

سألتني ذات مرة مؤخراً: لماذا أدّعي أنني أخافك؟ وكالعادة لم أكن أملك القدرة على التفكير بأن أجيب عن سؤالك: فمن جهة؛ بسبب هذا الخوف نفسه الذي أستشعره أمامك، ومن جهة أخرى؛ لأن تفسير هذا الخوف يتطلب تفاصيل أكثر مما أستطيع أن أجمعه تقريباً من خلفيات محزنة لهذا الخوف عند الكلام. وعندما أحاول الآن أن أجيبك كتابةً، فلن يكون الأمر تاماً كما ينبغي، ذلك لأن الخوف وعواقبه يعيقني إزاءك في الكتابة أيضاً، ولأن حجم الموضوع يتعدى قدرة ذاكرتي وعقلي على الاستنتاج.

أما بالنسبة لك، فقد كانت المسألة تبدو دائماً في غاية البساطة، على الأقل، عندما كنت تتحدث حول ذلك أمامي وأمام أناس آخرين كثيرين دون أن تختارهم. وهكذا كان يبدو لك الأمر تقريباً. لقد عملتَ طوال حياتك بكل جدّ واجتهاد، وضحيت بكل شيء من أجل أبنائك، ولا سيما من أجلي، وبناءً على ذلك، فقد عشت أنا حياة بهيجة بارعة، وكانت لدي الحرية الكاملة أن أتعلم أي شيء ارغب به، ولم يكن لديّ داعٍ يكلفني حمل هموم المعيشة، أو أي هموم أخرى إطلاقاً. ولم تكن تتوقع كلمة عرفان بالجميل لقاء ذلك، وقد كان معلوم

لديك ما هو شكر الأبناء، حركة ما تدلّ على ودّ، على الأقل، أو إشارة تنمّ عن قبول. وبدلاً من ذلك، كنت دائماً أتوارى عن ناظريك، وأنزوي في غرفتي بين كتبي، إلى أصدقاء واهنين، إلى أفكار غريبة. ولم أتحدث إليك ذات يوم عن هذا بصراحة، ولم آتِ إليك عندما تكون في معبد اليهود، ولم أزرك قط في مسبح فرانز، وغير ذلك أيضاً، لأنه لم يكن لدي في الواقع أي إحساس عائلي، ولم أهتم بعملك وشؤونك الأخرى، وتركت المعمل على عاتقك ثم ذهبت، وكنت عوناً لأوتلا في عنادها، وفي حين أنني لم أحرك إصبعاً من أجلك (حتى أنني لم أحضر لك تذكرة مرسح)، كنت أعمل كل شيء من أجل أصدقائي. فإذا لخصت حكمك عليّ، فإنه يتضح أنك حقيقة، لم تتهمني بشرّ أو سلوك شائن فعلاً (ربما باستثناء رغبتي الأخيرة بالزواج)، إنما تتهمني بالبرود والغرابة ونكران الجميل. وفوق ذلك، إنك تتهمني على نحو كما تبدو، بأن الذنب ذنبي، أو كما لو كان بإمكاني أن أغيّر كل شيء بإدارة العجلة بلمسة واحدة، في حين أنك لم تكن تحمل أدنى لوم، باستثناء أنك كنت ترفق بي أكثر من اللازم.

وتصورك المألوف هذا، وبهذا الأسلوب لا أعتبره دقيقاً إلى حد بعيد إلا بقدر ما أعتقد بأنك بريء تماماً من قضية إبعادنا. لكنني أنا أيضاً بريء تماماً مثلك. ولو كان بإمكاني أن أحملك على الاعتراف بهذا، لكان من المحتمل أن يتغير الوضع، ولما تهيأت لنا مثلاً حياة جديدة، إذ أن كلاً منا قد أصبح متقدماً في السن أكثر من اللازم، ولكن لا يزال هناك نوع من السلام؛ لم ينقطع، وإنما تقليل لتوبيخاتك التي لم تتوقف.

ومن عجب أن لديك فكرة عامة كافية عما أعنيه، إذ قلت لي مثلاً قبل فترة غير بعيدة:

«إني مولع بك دائماً، ولو لم أكن معك في الظاهر كما اعتاد الآباء الآخرون على وجه العموم أن يكونوا مع أبنائهم، وذلك بالذات، لأنني لا أستطيع أن أتظاهر مثل الآخرين».

إنني لم أشكّ مرة بطيبتك تجاهي يا والدي، لكن هذه الملاحظة أعتبرها غير دقيقة. أنت لا تستطيع أن تتظاهر، هذا صحيح، لكن الادعاء القائم على هذا السبب وحده، بأن الآباء الآخرين إنما يتظاهرون، فهو إما أن يكون مجرد عناد لا حاجة لمناقشته، أو أن يكون من جهة أخرى -وهذه هي حقيقة الأمر كما أرى- تعبيراً مبطناً عن أن شيئاً ما في علاقتنا غير واضح تعامى عليّ، وأنك شاركت في حدوث هذا الأمر، لكن دون ذنب. فإن كنت تعني هذا فعلاً، فإننا متفقان.

لست ذاهباً بالطبع إلى القول بأنني لم أصبح ما صرت إليه الآن إلا بتأثيرك. فإن هذا قول مبالغ فيه جداً (وإن كنت ميالاً إلى هذه المبالغة). ومن الممكن جداً أنني حتى لو كان من شأني أن أنضج بعيداً كل البُعد عن تأثيرك، لما كان بمقدوري أن أصبح شخصاً يستجيب له قلبك. ومع ذلك؛ كنت جديراً أن أكون على الأرجح شخصاً ضعيفاً، متخوّفاً، متردداً، مضطرباً، لا «روبرت كافكا» ولا «كارل هرمان»، ولكن إنساناً آخر مختلف مما أنا في الحقيقة، وكان جدير بنا أن نتحمّل بعضنا بعضاً بشكل ممتاز. كنتُ خليقاً أن أكون سعيداً لو استطعت أن أتخذك كصديق أو كرئيس،

خالاً، جَدّاً، وحتى (وإن كان هذا بتردد أكبر) حمواً. لكنك بالذات كوالد كنتَ أقوى من اللازم بالنسبة لي، خاصة وأن أخويّ قد توفيا وهما صغيران، ولم تأت أخواتي إلا بعد فترة طويلة، فتوجّب عليّ إذن أن أكون صلب العود، وأتحمّل الفترة الأولى وحدي كلية - ولهذا كنت ضعيفاً جداً.

قارن الآن بيننا: أنا، إن عبّرت عن نفسي باختصار شديد، ابن محدد من آل لووي مع مكون كافكاوي على نحو ما، لكن ابن لا تحركه إرادة حياة وأعمال وفتوحات كافكاوية، وإنما تحركه شوكة لُووية تعمل باتجاه آخر بخفاء وبحياء أكثر، وغالباً ما يخفق هذا العمل تماماً. أما أنت فإنك في الاتجاه الآخر كافكياً حقيقي تتميز بالقوة، والصحة، والشهية، وقوة الصوت، والبلاغة، والرضا عن النفس، والخبرة بالناس، والمثابرة، وحضور البديهة، والفراسة، وشيء من السخاء، وطبعاً مع كل ما يتبع هذه المزايا من ضعف وأخطاء تدفعك إليها خليقتك وأحياناً حدّتك. وربما لستَ كافكا كاملاً في نظرتك إلى الحياة عامة، بقدر ما أستطيع مقارنتك بأعمامي فيليب أو لودفيغ أو هاينريش. وهذا يدعو للاستغراب، وهذا أيضاً لا أستوعبه بوضوح تام. وبعد كل ذلك فقد كانوا جميعاً أكثر منك مرحاً وفرحاً، وأقل تكلفاً وأقل تأثراً للهموم وأقل حِدّة منك. (في هذا السبيل ورثتُ الكثير منك، وقمت بإدارة الإرث بشكل أفضل من اللازم، لكن دون أن أملك في طبيعتي القوى المعادلة كما تملكها أنت). غير أنك أيضاً من طرف آخر، عشت في هذا المجال حالات مختلفة. وربما كنت أكثر مرحاً، قبل أن يخيّب الأبناء أملك، خاصة أنا، ويثقلون عليك في البيت (كنت تتغير عندما يأتي غرباء وتكون

مختلفاً تماماً)، ولعلك الآن أصبحت أيضاً أكثر مرحاً، إذ أصبح الأحفاد والأصهار يمنحونك ذلك الدفء الذي لم يستطع الأبناء أن يمنحوك إياه، ربما باستثناء فالي.

وعلى أي حال، كان كل منا يختلف عن الآخر، وفي هذا التباين كان كل منا يشكل تهديداً للآخر، حتى إذا حاول المرء أن يقدّر سلفاً، مثلي، كيف سيتصرف الطفل المتكوّن ببطء، وأنت الرجل الكامل النمو، مع بعضهما بعضاً، كان من شأنه أن يفترض أنك سوف تسحقني تحت قدمك حتى لا يبقى مني شيء. وهذا لم يحدث، إذ لا يمكن تقدير المرء الواعي، لكن ربما يكون قد حدث ما هو أكثر سوءاً. غير أنني في حديثي هذا أرجوك دائماً ألا تنسى أنني لا أعتقد أبداً ولا في أي لحظة بوجود أي ذنب من جهتك. لقد كان لأثرك فيّ، كما كان عليك أن تؤثر لكن عليك أن تتوقف عن اعتبار خضوعي تحت هذا التأثير خبثاً خاصاً من جهتي.

لقد كنتُ طفلاً عندما كنت شديد الخوف، ورغم ذلك، فقد كنت بالتأكيد عنيداً مثلما يكون الأطفال، وكنت واثقاً بأن والدتي كانت تدلّلني أيضاً، لكنني لا أستطيع أن أعتقد أنني كنتُ صعب الترويض بشكل خاص، ولا أستطيع أن أزعم أنك لا تقدر أن تطلب مني كل ما يريده المرء بكلمة لطيفة، وبلمسة يد، أو بنظرة ودودة. إنك لم تتركني أنال أي شيء كنت أريده. ومع ذلك إنك في الحقيقة لإنسان طيب الجوهر وليّن الجانب (ما يلي لن يناقض هذا. فأنا أتحدث عن المظهر فقط الذي أثّرت فيه على الطفل)، لكن ليس كل طفل يملك الاحتمال والجرأة على البحث حتى يصل إلى الطيبة.

وأنت لا تستطيع أن تعامل طفلاً إلا كما ألفت نفسك بنشاط وصخب وحِدّة طبع. وفي هذه الحالة، بدا لك كل ذلك ملائماً تماماً، لأنك كنت تريد مني أن أنشأ فتى قوياً شجاعاً.

وطبعاً ليس بإمكاني أن أصف بأسلوب مباشر طرق تربيتك لي في السنوات الأولى من عمري، لكنني بالطبع أستطيع أن أصفها اليوم، لكنني لا أستطيع أن أتصورها على وجه التقريب استنتاجاً من السنوات اللاحقة، ومن طريقة معاملتك لفيليكس. ومما يدخل في الاعتبار ويزيد حدة التأثير، أنك كنت آنذاك أصغر سناً، وأنا كنت أكثر نشاطاً وعناداً، وكنت طبيعياً أكثر، وكنت ما زلت خليّ البال أكثر مما أنت اليوم، وإضافة إلى ذلك كنت مرتبطاً بالعمل، ونادراً ما كنت تريني نفسك وحتى بالكاد مرة في اليوم، ولذا كان تأثيرك عليّ أكثر عمقاً، ولم يتلاشى هذا التأثير أبداً ليتحوّل إلى عادة.

ولا أذكر بشكل مباشر إلا حادثة عارضة من السنوات الأولى، وربما تذكرها أنت أيضاً، كنت أبكي ذات مرة في الليل، وقد توسلت من أجل طلب جرعة ماء، ليس عطشاً بالتأكيد، وإنما على الأرجح كي أثير إزعاجاً من ناحية، وأتلهى من ناحية أخرى، وإذ أخفقت عدة تهديدات شديدة، أخذتني من السرير، وصرخت بوجهي وحملتني إلى الشرفة، وأنا أرتدي قميص النوم الداخلي، وتركتني هناك وحيداً أمام الباب المغلق فترة قصيرة. لا أريد أن أقول إن هذا كان خطأً -فربما لم يكن حقيقة وبالإمكان فعل غير ذلك حتى يسود الهدوء في الليل بطريقة أو بأخرى- لكنني أريد بهذا أن أحدد خصائص أساليب تربيتك وتأثيرها عليّ. ولقد أصبحت

آنذاك مطيعاً بعد ذلك، لكنني أصبت بأذى داخلي، وطبقاً لطبيعتي لم أستطع أن أربط البتة ربطاً صحيحاً بين توسّلي البديهي للحصول على الماء وبين حملي إلى الخارج بتلك الطريقة المرعبة للغاية. وحتى بعد سنوات، كنت ما زلت أعاني من التخيل المؤلم، بأنه يمكن للرجل العملاق والدي، الذي هو السلطة العليا، أن يأتي بلا سبب تقريباً، ويحملني من فراشي، ويضعني على الشرفة، وأن أكون إذن مثل هذا اللاشيء بلا ريب المقلق بالنسبة له.

لم يكن هذا آنذاك، سوى مجرد بداية، لكن هذا الشعور باللاشيئية الذي كان غالباً ما يسيطر عليّ (هو أيضاً من وجهة نظر أخرى شعور نبيل وخصب)، نشأ في الغالب من تأثيرك. إذ كان ينقصني قدر يسير من التشجيع، وقدر من الودّ، ليبقى طريقي مفتوحاً بعض الشيء، لكنك بدلاً عن ذلك أغلقته أمامي عن حسن قصد طبعاً، كي أسير على طريق آخر. لكن هذا لم يكن يلائمني. فمثلاً كنت تشجعني عندما كنت أنجح بتأدية تحية عسكرية، وأسير في خطوة عسكرية، لكنني لم أكن جندياً من جنود المستقبل، أو كنت تشجعني عندما كنت أتمكن من تناول الطعام بشهية، ولا سيما عندما كنت أستطيع أن أشرب كأساً من الجعة أيضاً، أو عندما كنت أستطيع ترديد أغانٍ غير مفهومة أو قول شيء من أقوالك المأثورة المفضّلة، لكن لا شيء من ذاك كان يخص مستقبلي. وإنه لأمر ذو دلالة أنك اليوم أيضاً لا تشجعني حقاً في شيء إلا إذا كان يمسّك نفسك، يتعلق بشعورك نفسك، هذا الشعور الذي أجرحه (برغبتي بالزواج مثلاً) أو الذي يُجرح فيّ (عندما تشتمني بيبا مثلاً). عندها أكافأ بالتشجيع وأُذكَّر بأنني ذو قيمة ويُشار إليّ بالصلات التي يحق

لي إقامتها، وبيبا تدان إدانة كاملة. ولكن بغض النظر عن أن تشجيعاً ما لا سبيل له تقريباً إليّ في سنّي الحالي، وكيف يمكن لهذا أيضاً أن يساعدني، إذا كان لا يأتي إلا عندما لا يكون الموضوع يتعلق بي بالدرجة الأولى.

إذن في هذا الوقت، وفي كل مكان كنت بحاجة إلى تشجيع. فقد كان بعد كل ذلك، كان كاهلي مثقلاً تحت قوة جسدك. وأذكر على سبيل المثال كيف كنا في الغالب ننزع ملابسنا سوية في غرفة تغيير الملابس في المسبح، وكنت أنا هزيل، ضعيف، نحيل، وأنت قوي، كبير، عريض. وحتى منذ دخولنا «الغرفة» كنت أبدو لنفسي في حالة يرثى لها... ليس أمام عينيك فحسب، وإنما أمام أعين العالم كله، حيث كنتَ بالنسبة لي مقياس كل الأشياء. ولكن عندما كنا نخرج من «الغرفة» إلى أمام الناس، وأنا متعلق بيدك هيكل عظمي صغير، أسير مرتبكاً بقدمين عاريتين على الألواح، متخوف من الماء، عاجز عن تقليد حركاتك في السباحة، هذه الحركات التي كنت دائماً تعرضها عليّ عن حسن نية، لكنها في الواقع كانت تخجلني أشد الخجل، فكنت أشعر باليأس. وفي مثل تلك اللحظات كانت جميع تجاربي السيئة في كل المجالات تنسجم مع بعضها بعضاً بشكل بديع، وأكثر ما كان يريحني هو عندما كنت أحياناً تنزع ملابسك قبلي، وأبقى في «الغرفة» وحيداً، وأتأخر عن الظهور أمام الناس حتى تأتي أخيراً باحثاً عني وتسوقني من «الغرفة». وكنت شاكراً لك كونك كنت تبدو أنك لا تلاحظ متاعبي، لكنني كنت فخوراً بجسم والدي. ولذلك، فإن هذا الاختلاف بيننا ما يزال قائماً حتى اليوم بشكل واضح.

وعلاوة على ذلك، فقد وافق هذا سيطرتك الفكرية، وقد عملت بهذه الطريقة على تنمية شخصيتك بقوتك وحدها، وتبعاً لهذه النتيجة أصبحت تثق برأيك على نحو غير محدود. ولم يكن هذا باهراً بالنسبة لي كطفل مثلما كان فيما بعد بالنسبة للفتى اليافع. كنت تحكم العالم وأنت تجلس في كرسيّك ذي المسند. رأيك كان صحيحاً، وكل رأي آخر كان رأياً تافهاً، غريباً، مجنوناً، وغير طبيعي. وكانت ثقتك بنفسك كبيرة إلى درجة أنه لم يكن عليك أن تكون منطقياً مع نفسك، ومع هذا؛ لم تكن لتتنازل عن امتلاك الحق إلى جانبك. وكان يحدث أيضاً ألا يكون لديك رأي في أمر من الأمور، لكنك كنت ترى أن سائر الآراء التي كانت ممكنة في هذا الأمر خاطئة بلا استثناء. فقد كنت مؤهلاً على سبيل المثال أن تشتم التشيكيين، ثم تشتم الألمان، ثم اليهود والمزيد عن ذلك، ولكن ليس انتقاء فحسب، وإنما من كل ناحية، وفي النهاية لم تبق أحداً غيرك. أما بالنسبة لي فقد أصبحت تتصف بالغموض الذي يحيط بجميع الطغاة الذين يقوم حقهم على شخصهم وليس على التفكير، وعلى الأقل، هكذا بدت لي الأمور.

والآن أقول كان الحق لك فعلاً إزائي في الغالب بشكل يدعو للاستغراب، وكان هذا أمراً بديهياً في مداولة الحديث، إذ كان من الصعب أن ندخل في حديث بيننا، كما كان بديهياً في الواقع. غير أن هذا أيضاً لم يكن شيئاً غير قابل للفهم بشكل خاص. فقد كنتُ أقف بكل اعتقادي بعد كل ذلك تحت ضغط شخصيتك القاسية، حتى بتفكيري الذي -لا يتفق مع تفكيرك- وخاصة بتفكيري هذا. وكانت جميع هذه الأفكار المستقلة عنك بوضوح، مثقلة منذ البداية

بحكمك المستبد. واحتمال هذا حتى تنفيذ الفكرة بشكل كامل ومستمر كان عملاً مستحيلاً تقريباً، وأنا لا أتحدث هنا عن أي أفكار عظيمة، وإنما عن كل مشروع بسيط من وقت الطفولة. وعندما كنت أفرح بأمر ما يملك عليّ نفسي، فأحضر إلى البيت وأتحدث عنه، يكون الجواب عبارة عن تنهيدة ساخرة، أو هزة رأس، أو نقر بالإصبع على الطاولة، وقولك بازدراء تعبيراً مثل: «شاهدت أيضاً شيئاً أجمل»، أو «قلت لنفسي ليت لي مثل همومك»، أو «ليس رأسي هادئاً هكذا»، أو «اشترِ به شيئاً لنفسك»، أو «هذا حدثٌ أيضاً!»... وطبعاً لم يكن بإمكان الشخص أن يطلب منك تحفيزاً لكل صغيرة من صغائر الأولاد وأنت تعيش في هم وعناء. لكن هذا لم يكن الموضوع أيضاً، وإنما الموضوع كان بالأحرى، أنه كان لا بد لك دائماً وعلى نحو محتوم، أن تجلب للطفل مثل هذه الخيبات بحكم طبيعتك المختلفة، وأن يزداد هذا الاختلاف باستمرار مع تراكم المواد، بحيث أنه كان يؤكد نفسه أخيراً بحكم العادة، حتى عندما كنت ترى ذات مرة الرأي نفسه الذي أراه، وأن خيبات الطفل هذه لم تكن خيبات الحياة العادية، وإنما كانت تصيب في الصميم، لأن الموضوع كان يتعلق بشخصك الذي يقاس به كل شيء. الجرأة أو العزم أو الثقة أو الفرح بشيء ما، ولم يكن ليستمر إلى النهاية إذا كنت رافضاً، أو حتى إذا أمكن مجرد افتراض معارضتك، وهذا الافتراض كان قائماً تقريباً لدى كل شيء أفعله.

وكان هذا ينطبق على الأفكار كما ينطبق على الناس. كان يكفي أن أبدي بعض الاهتمام بشخص ما -ومن جراء قضيتي لم

يكن هذا ليحدث غالباً، حتى تتدخل بشدة، دون مراعاة لطبيعتي ودون احترام لحكمي- تروح تكيل الشتائم والافتراءات والإهانات. وكان على أناس أبرياء براءة الأطفال، أن يكفّروا عن هذا الاقتراح، كالممثل اليديشي لوفي على سبيل المثال. فبدون أن تعرفه، قارنته بطريقة مخيفة كنتُ قد نسيتها، قارنته بحشرة. وبالنسبة للناس الذين كنت أودّهم، كنتَ تبادر في الغالب إلى قولك المأثور عن الكلاب والبراغيث. وهنا أتذكر الممثل بشكل خاص لأنني دونت لنفسي أقوالك عنه آنذاك بالملاحظة التالية:

«هكذا يتحدث أبي عن صديقي (الذي لا يعرفه أبداً)، ببساطة لا لسبب إلا لأنه صديقي. وسوف أواجهه بهذا دائماً، عندما سيتهمني بنقصان حب الأبناء للآباء ونقصان العرفان بالجميل».

ولم أستطع أبداً أن أتفهم انعدام إحساسك تماماً إزاء ما كنت تسبّبه لي بكلماتك وأحكامك من ألم وعار. كان الأمر كأنك لا تدري شيئاً عن حكمك وعن سيطرتك. وأنا أيضاً أزعجتك بلا ريب غالباً بكلمات، وكان هذا يؤلمني لكنني كنت دائماً أعرف الأمر، ولم أكن أستطيع أن أتمالك نفسي وأحجم عن النطق بالكلمة، كنت أشعر بالندم وأنا أقولها. لكنك أنت كنت تقول كلماتك بسهولة ويسر ودون مبالاة، ولم يكن أحد ليعارضك، ليس أثناء الكلام وليس بعده، وكنت أقف أمامك أعزلاً تماماً.

هكذا كانت تنشئتك كلها. وأظن أنك تملك موهبة في التربية، ولا شك أنه كان باستطاعتك أن تفيد إنساناً من صنفك

بتربيتك له، كان من شأنه أن يدرك رجاحة ما تقوله له، ولا يهتم بشيء آخر، وينفذ بكل هدوء ما يطلب منه. لكن بالنسبة لي كطفل، فقد كان كل ما كنت تصرخ به وصية لي نزلت من السماء، وأنا لم أنسَ هذه الوصية يوماً، بل ظلت أهم وسيلة لي في حكمي على العالم، وقبل كل شيء في حكمي عليك. وهنا كنتَ قد أخفقت تماماً، وإذ كنت في طفولتي ألتقي بك أكثر ما ألتقي معك على مائدة الطعام، فإن دروسك كانت في معظمها في آداب المائدة، وما كان يوضع على الطاولة كان يجب أن يؤكل، ولا يجوز الحديث عن جودة الطعام - لكنك أنت كنت غالباً ما تجد الطعام غير صالح للأكل، وتطلق عليه «العلف»، وتقول أن «البقرة» (الطبّاخة) أفسدته. ولأنك -تبعاً لجوعك الشديد وولعك الخاص- كنت تأكل كل شيء ساخناً وبسرعة وبلقمات كبيرة، وكان على الطفل أن يسرع ويتلقى التحذيرات بلا انقطاع:

«كُل أولاً ثم تحدث» أو «بسرعة بسرعة بسرعة» أو «انظر لقد أتيتُ على طعامي منذ فترة طويلة».

العظام لا يجوز لأحد أن يمتصها. أما أنت فلك هذا. الخلّ لا يجوز لأحد أن يرتشفه. أما أنت فتستطيع. كان المهم تقطيع الخبز بشكل مستوٍ، وكنت تقطّعه بسكين تبلّلها بالصلصة، فهذا كان سيّان. وكان علينا أن نحترس من عدم سقوط بقايا طعام على الأرض، لكن تحتك كانت معظم البقايا. على المائدة لا يجوز الانشغال بغير الطعام، لكن أنت كنت تنظف وتقصم أظافرك، وتبري أقلام الرصاص وتنظف أذنيك بنكّاشة الأسنان.

أرجوك، أيها الوالد، افهمني بشكل صحيح. كان من شأن هذه الأمور أن تكون بحد ذاتها تفاصيل لا أهمية لها على الإطلاق، ولم تثقل على نفسي إلا لكونك أنت، وأنت الرجل القدوة بالنسبة لي. لم تكن نفسك لتحافظ على الوصايا التي فرضتها عليّ، وبهذا أصبح العالم بالنسبة لي مقسّماً إلى ثلاثة عوالم:

في العالم الأول، كنت أنا العبد، أعيش تحت قوانين وضعت لي وحدي، ولم أتمكن أبداً، فوق هذا من الاستجابة لها كلها، ولا أدري لماذا؟

والعالم الثاني كان بعيداً عن عالمي لا نهاية له، وكنت أنت تعيش فيه مشغولاً بالحكومة وإصدار الأوامر وبالغضب بسبب عدم الامتثال لهذه الأوامر.

والعالم الثالث وهو العالم الأخير، حيث كان يعيش بقية الناس سعداء محررين عن الأوامر وتنفيذها.

لقد كنتُ في حيرة من أمري على الدوام. فإما أن أطيع أوامرك، وهذا كان عاراً، إذ لم تكن هذه الأوامر تنطبق إلا عليّ، وإما أن أكون معانداً، وهذا أيضاً بعد ذلك كان عاراً، إذ كيف كان يمكنني أن أكون معانداً إزاءك؟ أو لم يكن باستطاعتي أن أستجيب لأنني لم أكن أملك قوتك مثلاً ولا شهيتك ولا مهارتك؟ ورغم ذلك كنت تطلب مني هذا كشيء بديهي، وكان هذا هو العار الأعظم حقاً. إذ لم تكن تأملات الطفل هي التي تتحرك على هذا النحو، وإنما أحاسيسه ومشاعره.

ربما تتوضح حالتي عن ذلك الوقت إذا ما قارنتها بحالة فيليكس. إنك كنت تعامله بالطبع بطريقة مشابهة لي، وحتى إنك كنت تستخدم ضده أسلوب تربية رهيب بشكل خاص، بألاّ تكتفي عندما يقوم أثناء تناول الطعام بشيء ما غير نظيف حسب رأيك بالقول، ما كنت تفعل معي آنذاك، كقولك:

«إنك خنزير كبير» وتضيف قائلاً: «هرمان حقيقي» أو «تماماً مثل والدك».

وربما الآن لا يعود هذا –ولا يمكن القول أكثر من ربما– على فيليكس إلا بضرر عارض حقاً، إذ أنك لستَ بالنسبة له إلا جدّاً، وإن كنت جدّاً ومهمّاً، إلا أنك لست كل شيء كما كنت بالنسبة لي. وإلى جانب ذلك، فإن فيليكس ذو طبع هادئ، طبع رجولي إلى حد ما منذ الآن، ويمكن إثارة الذهول في نفسه بصوت جهوري، لكن لا يمكن السيطرة عليه على الدوام، ثم إنه لا يمكن أن يكون معك إلا في حالات قليلة نسبياً، كما أنه قد يقع تحت تأثيرات أخرى، وأنت تمثل بالنسبة له على الأصح شيئاً طريفاً لطيفاً يستطيع أن يختار منه ما يرغب أن يأخذه. أما بالنسبة لي، فلم تكن شيئاً طريفاً، ولم يكن بمقدوري أن أختار، بل كان عليّ أن آخذ كل شيء، بل ودون أن يكون بإمكاني أن أعترض على ذلك، إذ ليس باستطاعتك منذ البداية أن تتحدث بهدوء عن موضوع لا توافق عليه أو لم يأت منك؛ فطبعك الاستبدادي لا يسمح بهذا. وفي الأعوام الأخيرة أصبحت تفسر ذلك بحالتك العصبية القلبية، لكنني لا أعرف أنك كنت على نحو مختلف بشكل جوهري في أي وقت كان، وتوتر

أعصابك، إنما هو على أكثر تقدير، وسيلة لممارسة القوة بحدة أكثر، لأن التفكير بالتوتر لا بدّ وأن يكتم آخر اعتراض في نفس الآخرين، وطبعاً هذا ليس لوماً، إنما هو مجرد إثبات حقيقة كما هو في حالة أوتالا، عندما تقول:

«لا يمكن للمرء أن يتحدث معها على نحو سهل، فهي تقفز في وجهه مباشرة».

لكنها في الواقع لا تقفز أصلاً، وإنما أنت تخلط بين الشيء والشخص، فالشيء هو الذي يقفز إلى وجهك، وأنت تحسمه في ذهنك حالاً دون الاستماع إلى الشخص، وما يعرض فيما بعد لا يمكنه أن يقنعك أبداً، وإنما أن يستفزّك فحسب. وبعد ذلك لا يسمع المرء منك سوى:

«افعل ما تحب، أنت حر، أنت راشد، لا ينبغي عليّ أن أقدم لك نصائح».

وكل هذا بمسحة غضب مكبوتة مرعبة، ومسحة إدانة كاملة لا أرتعش أمامها اليوم أقل من أيام الطفولة إلا لأن شعور الطفل بالذنب قد حلّ مكانه إدراك عجزنا أنت وأنا.

وقد أدت استحالة المعاشرة الهادئة، إلى نتيجة أخرى طبيعية جداً في الحقيقة. لقد نسيت أن أقول: صحيح أنه لم يكن من شأني أن أصبح خطيباً بارعاً لو أتيحت لي ظروف أخرى، لكنني كنت سأملك ناصية لغة البشر العادية، بيد أنك منعتني عن الكلمة منذ المحطة الأولى المبكرة. وكان تهديدك:

«لا كلمة إنكار!» .

وكانت يداك المرفوعتان يرافقانني منذ البدء. وماذا كنت سأحصل منك -إن كنتَ خطيباً مفوهاً عندما يتعلق الموضوع بشؤونك، وتتحدث بطريقة ممتازة- لقد أخذت عنك طريقة حديث ملعثمة. وحتى هذا أيضاً وجدتَه كثيراً منك، وأخيراً صمتُّ تماماً، ربما عناداً في البدء، ثم لأنه لم يكن باستطاعتي أن أفكر أو أن أتحدث أمامك. ولأنك كنت مربيَ الحقيقي، فقد ترك هذا أثره المباشر في كل مكان طوال حياتي. وإنه لخطأ عجيب تماماً، عندما تعتقد أنني لم أخضع لك أبداً. «دائماً ضد» ولم يكن هذا فعلاً مبدئي في الحياة تجاهك، كما تعتقد وكما تلومني عليه، بل على العكس، لو تبعتك أقل مما فعلت، لكان من شأنك يقيناً أن تكون راضياً عني أكثر. لكن سائر إجراءاتك في التربية التي أصابت أهدافها بدقة. ولم أتجنب أي مسكة يد، وأنا، كما أنا، (بغض النظر عن الظروف الأساسية وتأثيرات الحياة طبعاً) نتيجة تربيتك لي وطاعتي لك. وأنَّ هذه النتيجة تثير خجلك رغم ذلك، وأنك ترفض عن غير وعي الاعتراف بهذا، كنتيجة لتربيتك لي، وإنما يعود إلى أن يدك وطبيعتي كانتا غريبتين عن بعضهما بعضاً. وكنت تقول:

«لا كلمة اعتراض!» .

وتقصد بذلك إسكات القوى المضادة فيّ، غير المريحة بالنسبة لك، لكن هذا التأثير كان بالنسبة لي قوياً للغاية، فخضعت له تماماً، وصمتُّ تماماً، وتواريت عن الأنظار، ولم أجرؤ على الحركة إلا عندما أكون قد ابتعدت عنك درجة لا تصل إليها سلطتك وبشكل

مباشر على الأقل. لكنك اعترضت على ذلك، وبدا لك كل شيء «ضد»، في حين أنه لم يكن سوى نتيجة بديهية لقوتك وضعفي.

وكانت وسائلك الكلامية هذه في التربية ذات تأثير بعيد عليّ، والتي ولم تخطئ أهدافها أبداً تجاهي على الأقل، كانت هي: التقريع والتهديد والتهكم والضحك الشامت والتظلم -على ما في هذا من غرابة- ولا أذكر أنك وجهت لي كلمة نابية مباشرة ولا شتائم صريحة. وهذا لم يكن ضرورياً، لكن كان لديك وسائل أخرى كثيرة، وأثناء الحديث في البيت وفي المتجر خاصة، كانت الشتائم تتطاير حولي وتنصب على رؤوس الآخرين بمقادير هائلة تذهلني وأنا فتى صغير، ولم يكن لدي في أغلب الأحيان من سبب يدعوني ألا أسحبها على نفسي، إذ أن الناس الذين كنت تشتمهم لم يكونوا يقيناً أسوأ مني، وتبرّمك بهم لم يكن يقيناً أكبر من تبرّمك بي. وهنا أيضاً كانت مرة أخرى براءتك من اللغز ومناعتك، فقد كنت تشتم بالتأكيد دون أن ترى أي بأس في ذلك، بل إنك كنت تدين اللوم والتقريع لدى الآخرين وتصده.

وكنتَ تعزّز التقريع بالتهديد، وكنتُ أنا أيضاً المقصود بهذا، وكان مما يرعبني مثلاً قولك:

«أمزّقك مثل سمكة».

ومع أنني كنت أعلم أن هذا طبعاً لن يتبعه مكروه (غير أني لم أكن أعرف هذا عندما كنت طفلاً)، لكنه كان يطابق غالباً تصوراتي عن قوتك، بأنك كنت خليقاً أن تفعل ذلك أيضاً. وكان مما يثير الرعب مهما كان عندما كنت تدور صارخاً حول الطاولة لتمسك

الطفل، من غير أن تريد على ما يبدو أن تمسكه، لكنك كنت تتظاهر بذلك، ثم تقوم الأم (أخيراً) ظاهرياً بإنقاذه. وهكذا كان يبدو للطفل مرة أخرى أنه حافظ على حياته برحمتك أنت، واستمر يخضع لها كهبة منك لا يستحقها. وهنا كانت تأتي التهديدات أيضاً التي كنت تطلقها بسبب عواقب الخروج على الطاعة. فعندما كنت أشرع بالقيام بعمل لا يعجبك، وتهددني بالفشل والخيبة، كانت الرهبة أمام رأيك كبيرة، بحيث أنه يصبح لا مكان للإخفاق، ولو لم يقع هذا ربما إلا في وقت لاحق. كنت أفقد ثقتي بما أفعله، وكنت في شك من أمري وغير مستقر على حال. وكلما تقدم بي العمر زادت الموضوعات التي كنت تستطيع أن تواجهني بها كبرهان على انعدام قيمتي. وتدريجياً أصبحت على حق فعلاً من وجهة نظر معينة. ومرة أخرى أتجنب الادعاء أنني لم أصبح كما أنا إلا من خلالك. لقد نمّيتَ ما كان، لكنك نمّيته كثيراً، لأنك كنت قوياً جداً إزائي، واستخدمت في النهاية كل قوتك في هذا.

وكنت تضع ثقة خاصة بتربية الأطفال بوسائل ساخرة، وكانت هذه أكثر ما تطابق تفوقك عليّ، وكان التحذير يأخذ لديك عادة هذا الشكل:

«ألا تستطيع أن تفعل هذا، هكذا وهكذا؟ هل هذا كثير عليك؟ طبعاً ليس لديك وقت؟ وما شابه...» .

وكان كل سؤال من أمثال هذه الأسئلة ترافقه ضحكة ساخرة ووجه ترتسم عليه علامات الحقد. كان المرء يعاقب أحياناً قبل أن يعلم أنه قد فعل شراً، ومما كان يثير الغيظ أيضاً توبيخاتك

التي كنت تعاملني بها كشخص ثالث، أي لا تراني جديراً حتى بتوجيه أسوأ الكلام لي، حيث كنت تتحدث شكلياً إلى الأم في حين كنت تقصدني، وأنا جالس معكما، فكنت تقول مثلاً:

«لا يمكننا طبعاً أن نحصل على هذا من السيد الابن وما شابه».

(ووجد هذا تسلية مقابلة، حيث لم أكن أجرؤ مثلاً، وفيما بعد لم أعد أفكر بذلك بحكم العادة، على أن أسألك مباشرة بحضور الأم. فقد كان أقل خطراً بالنسبة للطفل أن يستفهم عنك من الأم الجالسة إلى جانبك. كنت أسأل الأم: «كيف حال الوالد؟» وبهذه الطريقة أتقي المفاجآت).

وكان هناك طبعاً حالات أشعر فيها بكل الارتياح لأسوأ أنواع التهكم اللاذع، وذلك عندما كان يذكر شخصاً آخر، مثلاً «إلّي» التي كنت أجافيها طوال سنوات. كان عيداً من الشماتة بالنسبة لي عندما كنت تقول عنها على المائدة:

«على مسافة عشرة أمتار من الطاولة تجلس البنت العريضة».

وعندما كنت تجلس على كرسيك كالح الوجه دون أن أدنى أثر من البشاشة أو المرح، وإنما محاولاً مثل عدو لدود أن تقلّدها في جلستها التي لا يستسيغها ذوقك بحال من الأحوال بشكل مبالغ فيه. كم تكرر هذا وأمثاله، وكم كان قليلاً ما توصلت إليه في واقع الأمر من خلال ذلك، وكم كان يحدث هذا. وأعتقد أن السبب يكمن في أن مدى الغضب والحنق لم يكونا يبدوان في تجانس صحيح مع الموضوع نفسه. لم يكن لدينا شعور بأن مبعث الغضب هو هذا

الحدث البسيط، الجلوس بعيداً عن المائدة، وإنما كان الغضب موجوداً منذ البداية، ولم يتخذ هذه المسألة بالذات ذريعة لينفجر إلا عن طريق المصادفة، ولأن المرء كان على يقين من أنه يمكن إيجاد ذريعة مهما كانت الظروف، فإنه لم يحترس بصورة خاصة، كما أنه فقد إحساسه تحت التهديد المستمر، وبالتدريج أصبح المرء متأكداً تقريباً أنه لن يعاقب. لقد كان المرء طفلاً متجهماً، ساهياً، غير مطيع، يفكر على الدوام بهروب داخلي في الغالب. وهكذا كنتَ تعاني، وهكذا كنا نعاني أيضاً. ومن ناحيتك كنتَ على صواب عندما كنت معتاداً على القول بحرارة، وأنت تصك على أسنانك، وتقرقر ضحكاً بشكل أعطى الطفل لأول مرة تصورات جهنمية، حيث كنت معتاداً على القول مثلما قلت مؤخراً بسبب رسالة من اسطنبول: «يا لها من جماعة!» .

ومما بدا أنه لا يتفق قط مع موقفك هذا من أبنائك، هو عندما كنت تشتكي علناً، الأمر الذي كان يحدث غالباً. وأعترف أنه لم يكن لي إحساس بهذا عندما كنت طفلاً (أما فيما بعد فنعم)، ولم أفهم كيف كان يمكنك أن تتوقع أصلاً أن تجد عطفاً. لقد كنت عملاقاً (على كل وجه من الوجوه). ماذا كان يهمّك عطفنا أو حتى مساعدتنا؟ كان ينبغي عليك في الحقيقة، أن تستخف بذلك كما كنت تستخفّ بنا غالباً. لذا لم أكن أصدق الشكاوى التي كنت تطلقها، وصرت أبحث عن أي غرض خفي يكمن وراءها، ولم أفهم إلا فيما بعد أنك كنت فعلاً تعاني كثيراً بسبب أبنائك. آنذاك كان يمكن لهذه الشكاوى أن تجد تفهماً من قبل الأطفال، في ظل ظروف أخرى! تفهماً مخلصاً

غير متردد، وجاهزاً لكل عون. لكنها بدت لي مرة أخرى وسائل تربية وإذلال واضح كل الوضوح، وبحد ذاتها ليست وسائل شديدة جداً، لكنها ذات تأثير جانبي ضار، وهو أن الطفل اعتاد على ألا يأخذ الأمور بجد وبالذات التي كان عليه أن يأخذها كذلك.

وكان من حسن الحظ أنه كان هناك استثناءات لكل هذا، وغالباً عندما كنت تعاني بصمت، ويتغلب الحب والطيبة بتأثيرهما على كل ما يعترض سبيلهما، ويتحرك لها القلب في الحال. غير أن هذا كان نادراً، لكنه كان أمراً رائعاً، مثلاً عندما كنت أراك سابقاً في أيام الصيف القائظة بعد تناول وجبة الغداء وأنت تغفو قليلاً في المتجر، وقد وضعت مرفقيك على الطاولة، أو عندما كنت تأتي إلينا أيام الآحاد في مكان الاصطياف وأنت منهك، أو عندما كنت تمسك بصندوق الكتب وأنت تنتحب مرتجفاً أثناء مرض خطير أصاب الأم، أو عندما أتيت إليّ بخطوات خفيفة في غرفة «أوتلا» أثناء مرضي الأخير، وكنت تقف على العتبة، وتطل بعنقك فحسب كي تراني في السرير، ومراعاةً تحيي باليد فقط. في تلك الأوقات كان المرء يستلقي ويروح يبكي فرحاً، ويعود الآن إلى البكاء وهو يكتب هذا.

كما أن لك ابتسامة جميلة بشكل واضح من النادر أن ترى، ابتسامة ارتياح وهدوء ورضا في وسعها أن تسعد من تعنيه هذه تماماً. ولا أذكر أنني حظيت في طفولتي بمثل هذه الابتسامة بشكل خاص، لكن من المفروض أن هذا قد حدث، إذ لماذا كان عليك أن تحرمني منها آنذاك، وأنا ما أزال أبدو لك بريئاً، وكنت أَمَلُك الكبير، وفيما عدا ذلك فإن مثل هذه الانطباعات اللطيفة أيضاً لم تكن على

مر الأيام شيئاً آخر سوى زيادة شعوري بالذنب وجعل العالم غير مفهوم لي أكثر.

وفضّلتُ أن أحتفظ بالعملي والدائم الباقي. وفقط لكي أثبت قليلاً وجودي تجاهك، وبنوع من التشفي أيضاً من طرف آخر، شرعت بمراقبة أشياء مضحكة صغيرة لاحظتها لديك، ورحت أجمعها وأبالغ فيها. كيف كنتَ مثلاً تدع نفسك تنبهر بسهولة بأشخاص ليسوا أعلى شأناً منك إلا في الظاهر، وتروح تتحدث دائماً عن أي مستشار قيصري أو ما شابه؟ (لكن من ناحية أخرى كان مثل هذا الشيء يؤلمني، لكونك -أنت والدي- تظن أنك بحاجة إلى مثل هذه الشهادات التافهة على قيمتك، ولكونك تتباهى بهذه الشهادات). أو كنت ألاحظ ولعلك بتعابير بذيئة تقولها بصوت مرتفع قدر الإمكان، وتضحك وكأنك قلت شيئاً بديعاً بصورة خاصة، في حين أن ما قلته لم يكن إلا مجرد فحش قليل مبتذل (غير أنه كان في الوقت نفسه بالنسبة لي تعبيراً عن حيويتك يثير الخجل في نفسي). وطبعاً كان يوجد من مثل هذه الملاحظات المتنوعة، وكنت سعيداً بها، إذ كانت تعطيني سبباً للتهامس والمزاح؛ وكنت أنت تلاحظ الأمر أحياناً وتمتعض منه وتعتبره خبثاً وقلة احترام. لكن صدقني، لم يكن الأمر بالنسبة لي سوى وسيلة لحفظ الذات، لكنها وسيلة غير صالحة. كانت طرائف مثل الطرائف التي يتناقلها الناس عن الآلهة والملوك، طرائف لا يمكن ربطها لفائق الاحترام فحسب، وإنما هي جزء منه.

وأنت أيضاً حاولت كنوع من الدفاع الشخصي طبقاً لوضعك المماثل نحوي. لقد اعتدت أن تشير كم هي أحوالي طيبة بشكل

يفوق الحد، وكم أُحسِنَت معاملتي حقاً. هذا صحيح، لكنني لا أظن أن الأمر أفادني في ظل الظروف الموجودة فائدة جوهرية. حقاً إن الأم كانت طيبة معي بشكل متصل، لكن بالنسبة لي كان لكل هذا علاقة بك، إذن هي علاقة ليست جيدة التي كانت تقوم بها دون أن تدري، وإنما هي مثل من يقوم بدور المطارِد في الصيد. ولو كان في مقدور تربيتك في أي حالة بعيدة الاحتمال، أن تضعني على قدميّ بأن تخلق فيّ عناداً أو نفوراً، أو حتى كرهاً، فإن الأم كانت تزيل هذا برفقها وكلامها العاقل وشفاعتها (في فوضى الطفولة كانت مثال العقل بالنسبة لي) فأساق مرة ثانية إلى حظيرتك التي كان من شأني، ربما في ظروف أخرى أن أهرب منها، الأمر الذي كان سيعود عليك وعليّ بالنفع. أو أن الموضوع لم يكن ليصل إلى توافق حقيقي بيننا، وإنما كانت الأم تحميني منك خفية فقط، تعطيني شيئاً ما سراً، تسمح لي بشيء ما، فأكون أتحول أمامك إلى ذلك المخلوق الذي يتجنب ضوء النهار، يخشى الناس خوفاً من اكتشافه لأنه يخفي شيئاً ما، المخادع، المذنب، والذي بسبب ضآلة قيمته لا يستطيع أن يصل حتى إلى ما يعتبره حقاً له إلا بطرق ملتوية، وطبعاً تعودت بعد ذلك على أن أبحث بهذه الطرق حتى عما هو حسب رأيي ليس من حقي. وكان هذا مرة أخرى تضخيماً للشعور بالذنب.

وصحيح أيضاً أنك قلّما عاقبتني على نحو حقيقي، ولكن ما كان بالنسبة لي أكثر سوءاً من صراخك، واحمرار وجهك، وفكّ حمالات السروال على عجل ووضعها جاهزة على مسند الكرسي. وكأن المرء سيُشنق، وإذا شُنق فعلاً، فهو لا محالة ميت، وكل شيء انتهى. لكن إذا كان ينبغي عليه أن يشهد جميع التحضيرات التي

تتخذ من أجل شنقه، ولا يعلم عن العفو عنه إلا عندما يتدلى حبل المشنقة أمام وجهه، فإنه سيعاني من هذا الوضع طيلة حياته.

ومن هذه المرات الكثيرة، التي كنت أستحق فيها الضرب حسب رأيك الذي تبديه بوضوح، وقد نجوت منه بصعوبة رأفةً منك، فيزداد فضلاً عن ذلك مرة أخرى إلى مجرد شعور كبير بالذنب. ومن جميع النواحي ازداد إثمي نحوك على نحو أكبر.

كنت دائماً وأبداً تعيرني (وحدي أو أمام الآخرين -لم يكن لديك إحساس بإذلالي- وكانت شؤون أولادك علنية دائماً) بأنني أعيش بفضل عملك، بوفرة وهدوء ودفء ودون أي نقص.

إنني أفكر هنا بملاحظات لا بد أن تكون قد حفرت ما يشبه الأخاديد في دماغي، مثل:

«لم يكن عمري قد تجاوز سبع سنوات، عندما كان يجب عليّ أن أطوف على القرى وأنا أدفع عربة اليد أمامي. كنا ننام جميعاً في غرفة واحدة، وكنا سعداء عندما يكون لدينا بطاطا. طوال أعوام كان عندي جروح مفتوحة في الساقين بسبب نقص الملابس الشتوية. وعندما كنت فتى صغيراً كان علي أن أذهب للعمل في المتجر بملابس رثة. فأنا لم أحصل على أي شيء من البيت، ولا حتى عندما كنت في الجيش، لكنني كنت أرسل دائماً نقوداً إلى البيت. لكن رغم ذلك، رغم ذلك... كان الوالدُ بالنسبة لي هو الوالد دائماً. آه! لا أحد يعرف معنى هذا اليوم! ماذا يعرف الأولاد؟ هذا لم يعانه أحد! هل من طفل يفهم مثل هذا اليوم؟

كانت مثل هذه القصص جديرة بأن تكون، في ظل ظروف أخرى وسيلة تربية جيدة، وأن تحفز وتشتد لاجتياز المتاعب والنواقص التي كان الوالد قد عانى منها. غير أنك لم تكن تريد هذا أبداً، وإلا لكان الوضع قد أصبح مختلفاً نتيجة مجهودك، ولم يعد هناك فرصة للتميز بالطريقة التي كنت قد فعلت بها ذلك. كان ينبغي على المرء أن يخلق مثل هذه الفرصة بالقوة والانقلاب، كان ينبغي على المرء أن يتحرر من البيت ويخرج منه (لو كان المرء يملك القدرة على اتخاذ القرار والقوة على تنفيذه، ولو لم تعمل الأم من طرفها بكل الوسائل ضد ذلك). لكن كل هذا لم تكن تريده أبداً. كنت تصفه بأنه نكران جميل، غرابة أطوار، عقوق وخيانة، جنون. في حين كنت إذن تغري بالمثال والحكاية وإثارة الخجل، وكنت من جهة أخرى تمنع بكل حِدّة. وإلا كان من شأنك مثلاً بغض النظر عن الظروف الثانوية، أن تسعد حقاً بمغامرة «أوتلا في تسيراو». حين أرادت أن تذهب إلى الريف الذي كنتَ قد أتيت منه، أرادت أن تعمل عملك وتتقشَّف تقشفك، ولم تشأ أن تتمتع بثمار عملك، كما كنت أنت أيضاً مستقلاً عن والدك. هل كانت هذه أهداف مفزعة بعيدة عن أمثالك وقاعدة سلوكك؟ حسناً، لقد أخفقت أوتلا أهدافها أخيراً في النتيجة، وربما كانت أوتلا قد حاولت تحقيق مقاصدها بشكل مضحك نوعاً ما، وبضجيج كبير، ألم تراع والديها بشكل كافٍ. لكن هل كان هذا ذنبها وحدها، ولم يكن هذا أيضاً ذنب الظروف وقبل كل شيء كونك قد أصبحت غريباً عنها كثيراً؟ هل كانت مثلاً، غريبة عنك في المتجر أقل مما كانت فيما بعد في تسيراو؟ (كما أردت أن توهم نفسك بعد ذلك)؟ وهلاّ كان لديك

القدرة بكل تأكيد (لو استطعت أن تحمل نفسك على فعل ذلك) على أن تصنع من هذه المغامرة خيراً كثيراً، وذلك بالتشجيع والمشورة والإشراف وحتى ربما بالسماح بها؟ وبعد كل هذه التجارب كنت تقول في مزاح جارح: إن أحوالنا طيبة أكثر من اللازم. ولعل هذا لم يكن مزاحاً وحسب، بل احتيالاً !

إن ما اضطررت لانتزاعه بالكفاح، حصلنا عليه من يدك، لكن الكفاح من أجل الحياة الخارجية الذي كان طريقه مفتوحاً لك منذ أول وهلة، والذي طبعاً لا نعفى منه نحن أيضاً، ينبغي علينا فيما بعد أن ننتزعه بقوة الأطفال ونحن في سن الرجولة. أنا لا أقول إن حالنا هو بالضرورة أسوأ مما كان عليه وضعك، لكن على الأرجح أن وضعنا هو بالأحرى معادل لوضعك (لكن دون أن نقارن الظروف الأساسية)، غير أن حظنا العاثر يكمن في أننا لا نستطيع أن نتباهى بعوزنا ولا أن نذلّ أحداً به، كما فعلت أنت بعوزك. كما أنني لا أنكر أنه كان من الممكن أن يكون من شأني التمتع بشكل صحيح حقاً بثمار عملك العظيم الناجح، وأن أفيد من هذه الثمار وأستمر في العمل بها بما يسرّك، لكن غربتنا عن بعضنا اعترضت سبيل ذلك. لقد استطعت أن أتمتع بما تعطيه، لكنني لم أفعل هذا إلا وأنا أشعر بالخجل والتعب والضعف والذنب؛ لذا لم أستطع أن أكون شاكراً لك كل شيء إلا مثلما يكون متسولاً شاكراً، وليس بطريق الفعل.

وكانت النتيجة الواضحة التالية لكل هذه التربية، هي أنني أصبحت أتجنب كل ما يذكّر بك من قريب أو بعيد. وكان المتجر أول ما تجنّبته. وكان جديراً بهذا المتجر المطل على الشارع، أن يبعث

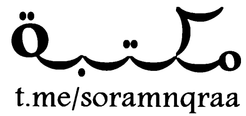
السرور في نفسي، وخاصة أيام الطفولة، فقد كانت الحياة تدبّ فيه، ويضاء مساء، وكان المرء يشاهد ويسمع كثيراً، ويساعد بين الفينة والأخرى، ويجيد، ويعجب بك قبل كل شيء، يعجب بمواهبك التجارية العظيمة، كيف كنت تبيع، وتعامل الناس، وتمازحهم، وكيف كنت لا تكلّ ولا تملّ، وكيف كنت في حالات الشك تعرف القرار على الفور، وهكذا إلى آخره، حتى الطريقة التي كنت تحزم فيها شيئاً أو تفتح بها صندوقاً كان مشهداً جديراً بالمشاهدة، والمجموع كله لم يكن أسوأ من مدرسة أطفال. لكن عندما رحت تثير الخوف في نفسي شيئاً فشيئاً، وتصبح بالنسبة لي جزءاً من المتجر، والمتجر جزءاً منك، ولم أعد أشعر بالراحة فيه، فبعض الأشياء التي كنت أسلّم بها في البداية، أصبحت تثير الألم والخجل في نفسي، ولا سيما طريقة معاملتك للعاملين في المتجر.

لا أدري، ربما كانت هذه الطريقة تطبّق في معظم المحلات (في شركة التأمين الإيطالية التي عمل فيها، (سيكورازيوني جنرالي) مثلاً كانت مماثلة فعلاً. وهناك شرحت للمدير، دون أن يكون شرحي مطابقاً للحقيقة تماماً، ودون أن يكون كاذباً تماماً، سبب استقالتي بأنني لا أستطيع أن أتحمل الشتائم حتى لو لم تكن موجهة إليّ مباشرة؛ لقد كنت من هذه الناحية حساساً بشكل مؤلم، وكنت قد جلبت هذه الحساسية معي من البيت)، غير أن المحلات الأخرى لم تكن تهمّني أيام الطفولة. أما أنت فقد كنت أسمعك وأراك تصرخ في المتجر، وتشتم، وتثور ثائرتك ولم يكن يحدث مثل هذا حسب رأيي آنذاك في أي مكان آخر في العالم. وليس الشتم فحسب،

وإنما الظلم والتعسف أيضاً. كيف كنت مثلاً ترمي بضائع على الطاولة بحركة قوية مفاجئة لأنك لا تريد أن تخلط بينها وبين غيرها -ولم يكن ليعذرك قليلاً سوى عجزك عن التحكم في غضبك- فيرفعها الصبي العامل. أو قولك المتكرر عن صبي يعمل لديك مصاب بمرض في رئته:

«على هذا الكلب المريض أن يفطس».

وكنت تسمّي العاملين لديك أيضاً:



«أعداء يتقاضون أجوراً».

وهذا شأنهم، لكن قبل أن يصبحوا هكذا، ظهرت لي أنك عدوهم الذي يدفع لهم أجوراً.

كما أنني تلقيت في متجرك درساً كبيراً، حيث إنك كنت تستطيع أن تكون ظالماً، ولم يكن ينبغي أن ألاحظ في بادئ الأمر أنك تظلمني نفسي، إذ كان قد تجمع لديّ أكثر ما يجب من الشعور بالذنب، هذا الشعور كان يعطيك حقاً، لكن كان هناك -حسب رأيي كطفل، هذا الرأي جرى تصحيحه طبعاً بعد بعض الشيء، لكن ليس كثيراً -أناس غرباء يعملون لدينا، ومع ذلك فقد كانوا يعيشون في خوف دائم منك، وطبعاً كنت أبالغ هنا، وذلك لأنني كنت أفترض دون تردد أنك كنت تقع منهم موقعاً مريعاً مثلما تقع مني. ولو كان الأمر كذلك، لما كان بإمكانهم حقاً أن يعيشوا. أما الكبار منهم فقد كانوا يملكون في الغالب أعصاباً قوية، وكانوا يتجاهلون الشتائم التي يسمعونها دون عناء، وفي النهاية كان الأمر

يعود بالضرر عليك أكثر مما كان يعود عليهم، وهذا جعل المتجر بغيضاً عليّ، وبات يذكّرني أكثر من اللازم بعلاقتي بك، بغض النظر عن مصلحتك كصاحب عمل، وبغض النظر عن حبك للسيطرة. كنت بصفتك تاجراً متفوقاً على نحو جيد على جميع أولئك الذين تعلموا لديك ذات يوم، ولم يكن أي عمل من أعمالهم يرضيك، كما أنه كان لا بد لك أن تكون غير راضٍ مني إلى ما لا نهاية، لذا كنت أنتمي بالضرورة إلى حزب العاملين، وهذا أيضاً لأنني نتيجة الخوف لم أفهم كيف يمكن للمرء أن يشتم غريباً، ولذا فقد أردت مصالحة العمّال المغتاظين أشد الغيظ حسب رأيي منك، وفي أسرتنا بطريقة ما، وذلك من أجل سلامتي أنا. وهنا لم يعد يكفي أن أتصرف تصرفاً عادياً مهذباً إزاء العُمّال، ولا حتى تصرفاً متواضعاً، بل كان عليّ أن أكون هادئاً، لا ألقي التحية أولاً فحسب، وإنما أتجنب التحية المقابلة إن أمكن. ولو «لعقت» أنا الشخص ضئيل الشأن أقدامهم من الأسفل، لما كان هذا خليقاً أن يكون تعويضاً لإلحاحك، أنت السيد، عليهم من الأعلى. هذه العلاقة التي أقمتها هنا مع إخوة تجاوز تأثيرها المتجر وامتد إلى المستقبل (وكان هناك شيئاً مماثلاً لكنه ليس خطراً ولا عميق الأثر كما كان الحال لدي، هو مثلاً حب أوتلا أيضاً لمعاشرة الناس الفقراء، كجلوسها مع الخادمات أو ما شابه، الأمر الذي كان يضايقك). وفي النهاية أصبحت أخاف تقريباً من المتجر، وعلى كل حال لم يعد الأمر من شأني منذ فترة طويلة، قبل أن أدخل إلى المدرسة الثانوية وأبتعد عن المتجر أكثر. كما أنه بدا لي صعب المنال بالنسبة لقدراتي، إذ أنه كان -كما كنت تقول- يستنفد حتى قدراتك. ومن ثم رحت تحاول (كما يبدو لي هذا اليوم مؤثراً

ومخجلاً) أن تستخلص لنفسك بعض العذوبة من نفوري من متجرك، رائعتك، هذا النفور الذي كان يؤلمك كل الألم، بأن رحت تدعي انه ينقصني حسّ التجارة، وأن رأسي مليء بأفكار سامية، وما شابه. وقد سرّت الأم طبعاً بهذا التفسير الذي اقتصرته على نفسك، وأنا أيضاً، في خيلائي وأشجاني، تركت نفسي أتأثر بهذا التفسير. لكن لو كانت «الأفكار السامية» وحدها فعلاً أو بصورة رئيسية هي التي صرفتني عن المتجر (الذي أصبحت الآن، لكن فقط الآن، أكرهه حقاً وصدقاً)، كان لا بد لها أن تعبّر عن نفسها على نحو آخر ولا تدعني أعوم بهدوء وخوف عبر المدرسة الثانوية ودراسة الحقوق، حتى انتهى بي المطاف على اليابسة بصورة نهائية إلى العمل كاتباً وأجلس على طاولة.

ولو أردت أن أفلت منك، كان ينبغي عليّ أن أهرب من الأسرة، وحتى من الأم. صحيح أنه كان باستطاعة المرء أن يجد لديها حماية، لكن فقط في علاقة معك. كانت تحبك وتخلص لك أكثر بكثير من أن تكون قادرة على أن تمثل على الدوام سلطة فكرية مستقلة في صراع روحي مع الطفل. وللمناسبة، هذا هو شعور فطري حقيقي لدى الطفل، إذ أن ارتباط الأم بك أصبح يزداد دائماً مع مرور السنين، في حين أنها فيما يتعلق بنفسها، احتفظت دائماً باستقلاليتها بأقل الحدود، بعذوبة ورقة، ودون أن تغيظك أبداً إغاظة حقيقية، وعلى الرغم من ذلك فإنها راحت تتبنى مع مرور الأعوام أكثر فأكثر وبدون روية وبعاطفة أكثر مما يكون بالعقل، أحكامك وإداناتك فيما يخص الأولاد، وخاصة في حالة أوتلا، لكن هذه الحالة كانت صعبة. وبالتأكيد أنه ينبغي على المرء أن يعي كم كان وضع الأم في الأسرة

مؤلماً ومضنياً حتى النهاية، فقد كانت تجهد نفسها في المتجر وفي البيت، وكانت تشارك في معاناة كل مريض في الأسرة، لكن أوج كل هذا، كان ما عانته في وضعها الوسط بيننا وبينك. لقد كنتَ دائماً محباً ومراعياً لها، لكن من هذه الناحية قلما كنت ترفق بها، مَثَلك في ذلك مَثَلنا وكنا نهوي عليها بلا مبالاة، أنت من جهتك ونحن من جهتنا. وكان الأمر عبارة عن النظر بحيث لم يفكر أحد بسوء، ولم يفكر أحد سوى بالكفاح الذي تخوضه معنا ونخوضه معك، ونفّسنا عن أنفسنا على حساب الأم، وكان هذا أيضاً إلى جانب المساهمة الحميدة في تربية الأولاد. كيف كنت -دون أي ذنب من ناحيتك طبعاً- تعذبها بسببنا، بل إنه كان يسوّغ على ما يبدو تصرفنا تجاهها، هذا التصرف الذي لا يمكن تبريره في ظروف أخرى. كم عانت منا بسببك، وكم عانت منك بسببنا، دون أن ترى تلك الحالات التي كنت فيها على حق، لأنها كانت تصفح عنا، وإن لم يكن هذا «الصفح» نفسه أحياناً سوى تظاهرة صامتة لا شعورية ضد نظامك. وطبعاً لم تكن الأم خليقة أن تتحمل كل هذا لو لم تأخذ من حبها لنا جميعاً ومن سعادة هذا الحب القوة اللازمة لهذا التحمل.

لم تكن الأخوات إلى جانبي إلا في حالات قليلة، وكانت «فالّي» هي الأكثر سعادة في وضعها معك، وكانت أقربنا إلى الأم، وقد أذعنت لك مثلها أيضاً دون جهد كبير ودون أذى كبير، لكنك بسبب ذلك أيضاً قَبِلتها بروح ودودة أكثر، مع أنها لم يكن فيها الكثير من الكافكاوية. لكن ربما كان هذا بالذات الذي يناسبك؛ فحيث لا يوجد شيء كافكاوي، لا يمكنك حتى أنت أن تطلب شيئاً مثل هذا، كما أنه لم يكن لديك شعور مثلما كان لدينا نحن

الآخرون، بأن ثمة شيئاً ما قد ضاع منا ولا بد من الحفاظ على ذكرى الأم بالقوة. وللمناسبة، فإنك لم تكن قط لتحبّ بشكل خاص الكفكاوي إذا ما تجلّى في النساء. وكانت علاقة فالّي بك خليقة ربما أن تكون أكثر ودية، لو لم نشوّشها نحن الآخرون بعض الشيء.

وكانت «إلّي» هي المثال الوحيد على النجاح الكامل تقريباً لاختراق مدارك والخروج منها. وهذا أبعد ما كنت أتوقعه من إلّي في طفولتها. فقد كانت طفلة خاملة، متعبة، خجولة، متبرمة، مرتبكة، خاضعة، شقية، كسولة، لحوحة، بخيلة. وكنت لا أكاد أنظر إليها، ولا أتحدث إليها مطلقاً، إذ كانت تذكّرني كثيراً بنفسي، وكانت تقع مثلي تماماً تحت تأثير التربية ذاتها. وكان بخلها خاصة كريهاً على نفسي، ذلك لأنني ربما كنت مصاباً به بقوة أكثر. فالبخل، كما هو معروف، من أهم ظواهر الشقاء الشديد، لقد كنت أشعر بعدم الثقة بكل الأشياء بحيث أنني لم أكن أملك فعلاً سوى ما أمسكه بيدي أو أضعه في فمي، أو على الأقل ما يكون في طريقه إلى هناك. وهذا بالذات ما كانت وهي في وضع مماثل، تحب أن تنتزعه مني. لكن كل هذا تغير عندما تركت البيت في سن مبكرة -وهذا هو الأهم- وتزوجت وأنجبت أولاداً. ولقد أصبحت مرحة خالية البال، جريئة، سخية، ناكرة للذات، كبيرة الأمل. وإنه لأمر مستغرَب تقريباً، كيف لم تلاحظ أصلاً هذا التغيير، وعلى كل حال لم تقيّمه حسب الاستحقاق. لقد عمي بصرك من الضغينة التي كنت تكنّها دائماً ضد إلّي، وما زلت تكنّها في الحقيقة، إلا أن هذه الضغينة أصبحت الآن أقل أهمية، إذ أن إلّي لم تعد تسكن بيننا، وبالإضافة إلى ذلك، فإن حبك

لفيليكس وميلك إلى كارل، جعلا هذه الضغينة أقل أهمية، وكان على جيرتي وحدها أن تعاني أحياناً من ضغينتك.

كنت نادراً ما أجرؤ أن أكتب عن أوتلا، وأعلم أنني بهذا أجازف بكل تأثير الرسالة المأمول. في الظروف العادية، أي عندما لا يكون من شأنها أن تعاني من ضيق مخصوص أو يهددها خطر، لا تشعر نحوها سوى بالحقد؛ ولقد اعترفت لي بنفسك بأنها، حسب رأيك، إنما تسبب لك عمداً وعلى الدوام ألماً وإزعاجاً، وإنها تشعر بالرضا والسرور أثناء معاناتك بسببها. أي أنها نوع من الشيطان. إذن، أي نفور هائل، أكبر من النفور بينك وبيني، ولا بد أن يكون قد حدث بينك وبينها كي يصبح هذا الخطأ الهائل في التقدير ممكناً! إنها بعيدة عنك كثيراً بحيث لا تكاد تراها بعد، وإنما تضع شبحاً في المكان الذي تخمّن وجودها فيه.

أنا أعترف أنها سببت لك مصاعب شخصية بشكل خاص. إنني لا أنفَذ تماماً إلى أعماق هذه الحالة المعقدة للغاية، لكن على كل حال، كان هنا شيئاً كنوع من لووي مجهّز بأفضل الأسلحة الكافكاوية. بينك وبيني لم يكن ثمة كفاح حقيقي إذ سرعان ما قضي عليّ. وما تبقّى كان الهروب والمرارة والحزن والكفاح الداخلي. أما أنتما فقد كنتما دائماً في وضع قتالي، تشعران دائماً بالقوة والنشاط. إنه منظر رائع، كما هو منظر ملفت. لقد كنتما بادئ ذي بدء قريبين حقاً من بعضكما البعض، ربما حتى اليوم، كانت أوتلا هي من بين أربعتنا، التصور الأفضل للزواج بينك وبين الأم، وللقوى التي اتحدت في هذا الزواج. ولا أدري ماذا أفسد عليكما هناء الانسجام بين الأب

والابنة؛ لكن من الطبيعي أن اعتقد أن التطور كان مشابهاً لما كان الحال عليه عندي. من جانبك كانت طبيعتك الاستبدادية. ومن جانبها عناد آل لووي، وحساسية، وشعور بالعدل، وقلق، وكل هذا يدعمه الإحساس بقوة كافكاوية. وأنا أيضاً أثّرت فيها ليس بدافع شخصي، وإنما فقط من خلال حقيقة وجودي المجردة. لقد دخلت هي كآخر العقد إلى أوضاع سلطوية كانت قد اكتملت، وكان بمقدور أوتلا أن تشكل حكمها بنفسها من الأفكار الكثيرة التي كانت متوافرة وجاهزة. بل يمكنني أن أظن أنها قد تأرجحت بعض الوقت فيما إذا كان عليها أن تلقي بنفسها على صدرك أو على الخصوم، ويبدو أنه فاتك آنذاك شيء ما، فقمت بصدّها. غير أنكما كنتما خليقين، أي لو كان الأمر ممكناً أن تصبحا على أروع شكل من الوئام. صحيح أنه كان من شأني أن أفقد حليفاً، لكن كان من شأن رؤيتي لكما أن تعوّضني كثيراً، وأنت أيضاً كنت خليقاً بحظك غير المتوقع أن تجد في طفل واحد على الأقل بهجة كاملة، وأن تتحول لصالحي تحولاً كبيراً.

لكن هذا كله أصبح اليوم مجرد حلم. إن أوتلا لا صلة لها بالوالد، وعليها أن تبحث وحدها عن طريقها مثلي. وهي عندك أكثر سوءاً وخيانة مني، وذلك بالقدر الذي تزيدني فيه تفاؤلاً وثقة بالنفس وعافية وتحرراً من القيود، وأنا أفهم هذا. فمن وجهة نظرك لا يمكنك أن تكون غير ذلك. أجل، هي نفسها قادرة على أن تنظر إلى نفسها بعينيك وأن تشعر معك بالألم، لا بل أن تكون -ليس في يأس، لأن اليأس هو شأني- حزيناً جداً من ذلك. وصحيح أنك ترى أننا في تناقض واضح مع ذلك، لكن غالباً ما نتهامس مع بعضنا البعض،

نضحك، وبين الفينة والأخرى تسمع أننا نذكرك. وانطباعك هو أننا متآمران وقحان. متآمران يدعوان للاستغراب. وبالتأكيد، أنك الموضوع الرئيس في أحاديثنا وتفكيرنا منذ البداية، لكننا حقاً، لا نجلس معاً لابتكار شيء ضدك، وإنما لكي نناقش سوية بكل جهد، بمزاح، بجدّ، بحب، وعناد، وغضب، بنفور، بخضوع، بشعور بالذنب، بكل طاقات الرأس والقلب -كل هذه الذرائع في رؤوسنا وعقولنا- هذه الرهيبة القائمة بيننا وبينك، نتفحصها بكل تفاصيلها ومن كل جوانبها ولدى كل المناسبات ومن بعيد وقريب، هذه القضية التي تدّعي فيها على الدوام أنك فيها قاض، في حين أنك، على الأقل بل وإلى حد كبير (هنا أترك الباب مفتوحاً لكل الأخطاء التي يمكنني أن أقع فيها طبعاً)، طرف ضعيف مضلل القلب والبصيرة مثلنا.

وفي سياق الموضوع كله، هناك مثال مفيد من تأثيرك التربوي، هو «إرما»، والتي كانت كطرف محايد، جاءت إلى متجرك وقد بلغت سن الرشد، وكانت تتصل بك بصورة رئيسية بصفتك رئيساً لها، ولم تكن معرضة إلى تأثيرك إلا جزئياً، وفي سن يمتاز فيه الإنسان بالقدرة على المقاومة. لكن من جهة أخرى كانت أيضاً من الأقارب، تحترم فيك شقيق والدها، وكنت تملك نحوها أكثر بكثير من مجرد سلطة رئيس عمل. ورغم ذلك، فهي التي كانت بجسدها النحيل ماهرة، ذكية، مجدّة، متواضعة، جديرة بالثقة، ناكرة للذات، مخلصة، هي التي أحبتك عمّاً وأعجبت بك رئيساً، وهي التي أثبتت كفاءتها في أعمالها السابقة واللاحقة، لم تكن بالنسبة لك موظفة جيدة للغاية. كان حالها بالنسبة لك يقترب من حال الطفل، مدفوعة طبعاً من قبلنا أيضاً، وكانت قوة سلطتك عليها كبيرة، بحيث نشأ لديها (لكن اتجاهك

فحسب، وعسى أن يكون ذلك بدون معاناة الطفل المريرة) نسيان وإهمال ومرح متصنّع، وربما بعض العناد بالقدر الذي كنت تقدر عليه أصلاً، وأنا لا أضع في الحساب أبداً أنها كانت مريضة، وكذلك لم تكن سعيدة جداً، وأن ثمة حياة عائلية كئيبة كانت تثقل كاهلها. لقد حددت علاقتك بها، هذه العلاقة المعبّرة بالنسبة لي في جملة أصبحت جملة كلاسيكية بالنسبة لنا، تكاد تنمّ عن «كفر بالله»، إلا أنها علاقة في نفس الوقت على البراءة في معاملتك للناس، فقد قلت:

«لقد تركت لي المنتحب عليها السابقة كثيراً من الفوضى التامة».

كان عليّ أن أصف مدارات أخرى لنفوذك وللكفاح ضده، لكن من شأني هنا، إن فعلت ذلك، أن أدخل بالتأكيد إلى موقف حرج، وأن أضطر إلى التورية، وبالإضافة إلى ذلك، فإنك كلما ابتعدت عن متجرك وأسرتك أصبحت دائماً أكثر لطفاً ومرونة وأدباً ومراعاة ومشاركة (أقصد: ظاهرياً أيضاً)، ومثلك في ذلك مثل حاكم مستبدّ بأمره، لا داعي له عندما يكون ذات مرة خارج حدود بلاده، أن يظل على طغيانه، ويستطيع أن يظهر طيبةَ قلب، ويجري اتصالات حتى مع أدنى الناس مرتبة. وفعلاً كنت مثلاً في الصورة الجماعية التي التقطت في حمامات فرانسيس؛ حيث تبدو دائماً وأنت تقف بين الناس الصغار المتجهمين عظيماً منشرح الصدر مثل ملك يكون على سفر. ولا شك أنه كان يمكن للأولاد أيضاً أن يكسبوا نفعاً من هذا، لكن كان ينبغي عليهم -الأمر الذي كان غير ممكن- أن يكونوا قادرين على إدراك ذلك منذ طفولتهم، وكان لا يجوز لي أنا مثلاً، أن أصمت دائماً وأبداً في صميم مدار نفوذك الصارم الحازم، مثلما فعلت في الحقيقة.

ولم يكن ما فقدته نتيجة لذلك الشعور العائلي كما تقول فحسب، وإنما على العكس من ذلك ظل لدي بالأحرى إحساس بالعائلة، لكن هذا الشعور كان سلبياً بصورة رئيسية، كان شعور بالانفصال الداخلي عنك (هذا الانفصال الذي لا يمكن طبعاً إتمامه قط) غير أن العلاقات مع الناس خارج الأسرة أصيبت ربما بضرر أكثر بسبب نفوذك. ولا ريب أنك على خطأ عندما تظن أنني أفعل كل شيء للناس الآخرين حباً وإخلاصاً، ولا أفعل شيئاً لك وللأسرة برودةً وخيانة. وأنا أكرر للمرة العاشرة: في حالة أخرى أيضاً، كنت خليقاً أن أصبح على الأرجح إنساناً انطوائياً خائفاً. لكن من هنا ما زال طريق طويل ومظلم، يؤدي إلى ما وصلت إليه فعلاً. (حتى الآن أخفيت في هذه الرسالة عمداً بعض الأمور القليلة نسبياً، أما الآن وفيما بعد فإنه سيتحتّم عليّ أن أخفي بعض الأشياء، الأمر الذي ما زال يصعب عليّ أن أعترف به، أمامك وأمام نفسي). وأنا أقول هذا حتى لا تظن إذا ما أصبحت الصورة العامة غير واضحة بعض الشيء أحياناً، لأن هذا إنما يعود إلى نقص في الأدلة، وبالأحرى أدلة جديرة أن تجعل الصورة مضطربة بشكل لا يحتمل. إنه ليس من السهل العثور على موقع وسط فيها. وللمناسبة، يكفي هذا التذكير بما مضى.

كنت قد فقدت أمامك ثقتي بنفسي، واستبدلت بهذه الثقة شعوراً بالذنب لا نهائياً، متذكراً هذه اللانهائية، وكتبت مرة عن أحدهم بشكل صحيح:

«إنه يخشى أن يبقى الخجل مستمراً حتى بعد موته».

ولم يكن بمقدوري أن أتحول وأتغير فجأة، عندما ألتقي بأناس آخرين، لا بل كان شعوري بالذنب نحوهم يزداد حدة، إذ كان ينبغي عليّ كما قلت، أن أعوّض لهم عما كنتَ عليه في المتجر وبمشاركتي، حيث اقترفت بحقهم شيئاً من المسؤولية. وبالإضافة إلى ذلك كنتَ تعترض علناً أو سراً على كل من أخالطه. وعن هذا أيضاً كان ينبغي عليّ أن أطلب الصفح. وكنتَ في المتجر وفي الأسرة تحاول أن تغرس في نفسي سوء الظن وعدم الثقة بمعظم الناس.

(اذكر لي اسماً واحداً كان ذا أهمية ما بالنسبة لي في زمن الطفولة لم تنتقده في الصميم مرة على الأقل).

ومن الغريب أن هذا لم يكن ليثقل عليك بشكل خاص. لقد كنتَ قوياً بما يكفي لكي تحتمل الأمر، وبالإضافة إلى ذلك ربما لم يكن في الواقع سوى مجرد شعار الحاكم، وعدم الثقة هذا لم يتأكد في أي مكان لعيني الصغير، لأنني كنت أرى في كل مكان مجرد أناس ممتازين لا سبيل إلى الوصول إليهم، لذا فقد تحول الأمر في داخلي إلى عدم ثقة بنفسي، وإلى خوف متواصل من كل الآخرين.

وهناك لم يكن باستطاعتي بصورة عامة حتى أنقذ نفسي منك. وأنك قد خدعت نفسك في ذلك، ربما كان يعود ذلك إلى أنك لم تكن لتعلم شيئاً في الواقع عن علاقاتي بالناس، وكنت تفترض وأنت تسيء الظن وتشعر بالغيرة (هل أنكر أنني عزيز عليك؟) أنه ينبغي عليّ أن أعوّض لنفسي في مكان آخر عن الحرمان من الحياة العائلية، حيث أنه من غير الممكن -كما ترى- أن أعيش خارج الأسرة كما أعيش داخلها. وهكذا، كان لدي من هذه الناحية في طفولتي بالذات بعض العزاء في عدم ثقتي بحكمي، فقد كنت أقول لنفسي:

«إنك لتبالغ، تحس بالصغائر أكثر من اللازم، كاستثناءات كبيرة، مثلما يفعل الشباب دائماً».

لكنني فقدت هذا العزاء تقريباً عندما زادت شمولية نظرتي للعالم فيما بعد. كذلك لم أجد نجاة لي منك في اليهودية، وهنا كانت نجاة بحد ذاتها ممكنة، بل أكثر من ذلك، كان من الممكن أن نجد كلانا أنفسنا في اليهودية أو حتى أن ننطلق من هناك متحدين، لكن ماذا كانت هذه اليهودية التي تلقيتها منك! وبمرور الأعوام واجهت الموضوع على ثلاثة أشكال تقريباً.

عندما كنت طفلاً كنت ألوم نفسي بما يتناغم مع رأيك، لأنني لم أكن أذهب إلى المعبد بما فيه الكفاية ولم أكن أصوم وهكذا... لكنني لم أكن أظن أنني كنت قد أخطأت بحق نفسي، وإنما بحقك. وكان هناك ثمة شعور كامن ينتابني دائماً بالذنب.

وفيما بعد، عندما أصبحت شاباً، لم أفهم كيف كان بمقدورك أن تستخدم الشيء الصغير الذي كان لديك من اليهودية، وتلومني به بأنني لمجرد دواعي اللياقة (كما كنت تعبّر) لا أبذل جهداً لتحقيق لا شيء صغير مماثل. كان الأمر فعلاً بقدر ما كنت أستطيع أن أرى، لا مجرد شيء؛ كان نكتة - ولا حتى نكتة.

كنت تذهب إلى الكنيس أربعة أيام في العام، وكنت هناك على الأقل أقرب إلى غير المبالين منك إلى أولئك الذين كانوا يأخذون الموضوع مأخذ الجد، كنت تؤدي الصلوات كشكليات وأنت صابر، وكنت تدهشني أحياناً بأنه كان باستطاعتك أن تدلّني في كتاب الصلوات والأدعية على الموضع الذي كان يتلى في تلك اللحظة؛

وهكذا لم تكن تسمح لي بالتملص حيث أشاء (وكان هذا هو الشيء الرئيس) إلا عندما أكون في الكنيس. فرحت أتثاءب هناك طوال الساعات وأغفو (وأظن أنني لم أشعر فيها بعد بمثل ذلك الملل سوى في درس الرقص)، وأحاول ما أمكن أن أسرّ ببعض الأشياء الصغيرة المتنوعة التي كانت موجودة هناك مثلاً.

وعندما كان تابوت العهد يفتح، الأمر الذي كان يذكّرني دائماً بصالات الرماية للأطفال، وهناك أيضاً كان عندما يصيب المرء الهدف، باب صندوق يفتح، لكن هناك كان يخرج دائماً شيء مثير، أما هنا فلا شيء سوى الدمى العتيقة بدون رؤوس. وكذلك كنت هناك أيضاً أشعر بخوف أساسي، ليس فقط كما هو طبيعي من الناس الكثيرين الذين يحتك بهم المرء عن قُرب، وإنما أيضاً لأنك ذكرت عرضاً ذات مرة أنه يمكن لي أنا أيضاً، أن أُدعى إلى الترتيل. وكنت أرتعد خوفاً من هذا طوال أعوام. لكن ما عدا ذلك لم أنزعج كثير، إلا في حفل الفتيان، لكن هذا لم يكن يقتضي سوى الحفظ المضحك عن ظهر قلب، أي لم يكن يؤدي إلا إلى اختبار مضحك، ثم -فيما يتعلق بك- بوقائع غير ذات أهمية، مثل:

عندما كنت تُدعى إلى الترتيل وتجتاز بشكل جيد هذا الحدث، الذي هو مجرد حدث اجتماعي فيما أرى، أو عندما كنت أظل في الكنيس لدى حفل التأبين على روح الميت، وأُبعد أنا، الأمر الذي أثار خلال وقت طويل - بسبب هذا الإبعاد على ما يبدو ولعدم أي مشاركة حقيقية، الشعور العميق تقريباً- بأن الموضوع إنما يتعلق بشعور غير لائق. هكذا كان الحال في الكنيس، وربما كان الحال في

البيت أكثر سوءاً، إذ كان ينحصر في سهرة اليوم الأول من أيام عيد فصح اليهود التي كانت تتحول دائماً أكثر إلى ملهاة تتخللها ضحكات هستيرية، لكن تحت تأثير الأطفال الذين كبروا. (لماذا اضطررت أن تخضع لهذا التأثير؟ لأنك أحدثته).

إذن هذه كانت الموضوعات الدينية التي ورثتها، وأُضيف إليها على الأكثر اليد الممدودة التي أشارت إلى «أبناء المليونير فوكس» الذين كانوا يحضرون إلى الكنيس مع والدهم أيام الأعياد الكبيرة. ولم أفهم ماذا يمكنني أن أفعل بهذه الموضوعات أفضل من التخلص منها بأسرع ما يمكن، وهذا التخلص بالذات بدا لي أنه العمل الأكثر تناسباً.

لكنني فيما بعد أصبحت أفهم الأمر بشكل مغاير، وأدركت لماذا كنتَ تعتقد أنني من هذه الناحية أيضاً إنما أغدر بك عن سوء نية. كنت قد جلبت معك من القرية الصغيرة المحصورة شيئاً ما من اليهودية. لم يكن هذا الشيء كثيراً، كما أنه تلاشى قليلاً في المدينة وفي الجيش، وعلى كل حال لم تكن انطباعات وذكريات أيام الشباب كافية إلا قليلاً لنوع من أنواع الحياة اليهودية، ولا سيما أنك لم تكن لتحتاج إلى الكثير من مثل هذه المساعدة، وإنما كانت من سلالة قوية للغاية، كما أنه كان من الصعب على الشكوك الدينية أن تهزّك إذا لم تمتزج كثيراً بالشكوك الاجتماعية. وفي الحقيقة كان الإيمان الذي يقود حياتك إنما يكمن في أنك كنت تؤمن بالصحة المطلقة لآراء طبقة اجتماعية يهودية معينة، ولأن هذه الآراء كانت من طبيعتك، فإنك كنت في الواقع تؤمن إذن بنفسك. وفي هذا أيضاً كانت تكمن يهودية كافية، لكنها كانت أقل مما يمكن توريثها للطفل، ولقد تبعثرت تماماً وأنت تنقلها.

بعضها كان عبارة عن انطباعات صبيانية غير قابلة للنقل، وبعضها كان من طبيعتك المرهوبة الجانب. وكان من غير الممكن أيضاً إفهام طفل يمعن في المراقبة لمجرد تخوّفه، بأن السفاسف القليلة التي كنت تمارسها باسم اليهودية بلا مبالاة تناسب تفاهتها، إنما يمكنها أن تكون ذات معنى سام. كانت ذات معنى بالنسبة لك بصفتها ذكرى صغيرة من الأيام الماضية، ولهذا السبب أردت أن تنقلها لي، لكن، إذ لم تعد بالنسبة لك ذات قيم ذاتية، لم تستطيع فعل ذلك إلا بالإقناع أو التهديد، فمن جهة لم يكن في مقدور هذا أن ينجح، ومن جهة أخرى كان لا بد له كونك لم تدرك مدى ضعف موقفك هنا، أن يثير غيظك عليّ بسبب عنادي المزعوم.

والأمر كله طبعاً لم يكن ظاهرة متفردة، وإنما كان شأن قسم كبير من هذا الجيل اليهودي الانتقالي الذي هاجر من الريف المتدين نسبياً إلى المدن، وقد جاء الأمر تلقائياً، غير أنه أضاف إلى علاقتنا، التي لم يكن بالتأكيد ينقصها الحدة، حدة أخرى مؤلمة بشكل كافٍ. على العكس مما بدا لك من ذلك، صحيح في هذه النقطة أيضاً أن تؤمن مثلي ببراءتك، لكن كان عليك أن تعزو هذه البراءة إلى طبيعتك وإلى ظروف العصر، لكن ليس لمجرد الظروف الخارجية، ولا أن تقول مثلاً، أنه كان لديك أعمال ومشاغل أخرى أكثر من أن تستطيع أن تشغل نفسك بمثل هذه الأمور. وبهذه الطريقة اعتدت أن تحوّل براءتك التي لا شك فيها إلى تهمة باطلة ضد الآخرين. غير أنه من السهل جداً دحض هذه التهمة في كل مكان، وهنا أيضاً الموضوع الذي لم يكن ليتعلق بدرس من الدروس. مثلاً كان عليك أن تعطيه

لأولادك، وإنما بحياة يقتدى بها، فلو كانت يهوديتك أكثر رسوخا لكان مثالك أكثر إقناعاً، وطبعاً ومرة أخرى ليس هذا تهمة، وإنما هو مجرد رد على اتهاماتك. لقد قرأتَ مؤخراً ذكريات الشباب لفرانكلين. أعطيتها لك عمداً كي تقرأها، لكن ليس كما علّقت ساخراً بسبب موضع صغير عن النباتية، وإنما بسبب العلاقة بين المؤلف ووالده، كما وصفت في الكتاب، والعلاقة بين المؤلف وابنه، كما تعبر عن نفسها بنفسها في هذه الذكريات المكتوبة من أجل الابن. ولا أريد هنا أن أبرز تفاصيل.

وقد حصلتُ فيما بعد على تأكيد ما لهذا الرأي بيهوديتك، نتيجة مشاهداتك في الأعوام الأخيرة، عندما بدا لك أنني أشغل نفسي أكثر بأمور يهودية، ولأنك تملك منذ البداية نفوراً ضد كل أمر من أموري، وخاصة ضد طريقة إقبالي على هذه الأمور، فإنك كنت تملك هذا النفور هنا أيضاً. لكن فضلاً عن ذلك، كان يمكن للمرء أن يتوقع أن تعمل هنا استثناء صغيراً، فما تحرك في النفس هنا كان يهودية من يهوديتك، وهذا يعني أنه كان هناك ثمة إمكانية لإقامة علاقات جديدة بيننا. وأنا لا أنكر لو أنك أظهرت اهتماماً بهذه الأمور، فإنها كانت جديرة -بسبب هذا الاهتمام بالذات- أن تبدو لي مثاراً للريب والشكوك. ولا يخطرنّ ببالي أن أرغب بالادّعاء أنني في هذا المجال بفضلك على نحو أو آخر، لكن الأمر لم يصل إلى حد التجربة.

بواسطتي أصبحت اليهودية بغيضة لديك، والكتابات اليهودية التي كنت قد قدمتها لي في طفولتي هي وحدها الشيء الصحيح، وما عدا ذلك لا يوجد شيء آخر. لكن لم يكن بالإمكان

تصور أنك تصرّ على ذلك، غير أن «الاشمئزاز» (بغض النظر عن أنه لم يكن ينصبّ بادئ الأمر ضد اليهودية، وإنما على شخصي)؛ لم يكن قادراً أن يعني سوى أنك كنت تعترف من حيث لا تدرك بضعف يهوديتك وضعف تربيتي اليهودية، ولا تريد أن تذكَّر بهذا الضعف بأية طريقة، ولكن الحقد السافر هو ردّك على كل الذكريات. ولهذا كان تقديرك السلبي ليهوديتي الجديدة مبالغاً فيه كثيراً؛ فقد كانت أولاً تحمل في نفسها لعنتك، وكانت العلاقة المبدئية مع الناس ثانياً حاسمة في نشوئها؛ أي مميتة في حالتي.

وعلى نحو أكثر، أصبت بنفورك كتابتي وما -الأمر الذي لا تعرفه- يتعلق بها. وهنا كنت فعلاً قد ابتعدت عنك مستقلاً بعض الشيء، وإن كان هذا الابتعاد يذكّر قليلاً بدودة ضَغَطت قَدَمٌ على قسمها الخلفي، فأفلتت قسمها الأمامي وجرّت نفسها إلى الجانب، إلى حد كانت في أمان، وكان هناك ثمة ارتياحاً. أما الكراهية التي كنت تكنّها على الفور طبعاً لكتابتي أيضاً، كنت أرحب بها هنا استثناءً. حقاً، أن كبريائي وطموحي كانا يضيقان بقبولك لكتبي، هذا القبول الذي أصبح مشهوراً بالنسبة لنا:

«ضعه على الطاولة الصغيرة بجانب الفراش».

(كنتَ في الغالب تلعب الورق عندما يصل كتاب)، لكن في الواقع كنت أشعر هنا بالسعادة، ليس فقط شماتةً غاضبة، وليس فقط سروراً بإثبات جيد لصحة رأيي في علاقتنا، وإنما في الأصل لأن تلك الصيغة كانت تقع في سمعي مثل:

«الآن أنت حر!».

وطبعاً كان الأمر تضليلاً، فأنا لم أكن حراً، أو في أحسن الأحوال لم أكن حراً بعد. كانت كتابتي تدور حولك. والحق كنت أشكو فيها ما كنت لا أستطيع أن أشكوه على صدرك. كانت - وداعاً- منك أطلته عمداً، صحيح أنه كان مفروضاً من قِبَلك، لكنه سار في الاتجاه الذي حددته أنا. لكن كم كان كل هذا قليلاً! ولا يستحق الذكر إطلاقاً، لا لأنه حدث في حياتي، وفي غير هذا المكان لم يكن خليقاً أن يلاحَظ، ثم لأنه كان يسيطر على حياتي في طفولتي كإحساس داخلي، وفيما بعد مثل الأمل، وفي وقت لاحق مثل قنوط وفرض عليّ -في شخصك مرة أخرى إذا شئنا- أحكام قليلة بسيطة.

أما عن اختيار المهنة مثلاً. لا شك أنك أعطيتني هنا حرية تامة على طريقتك برحابة الصدر، بل وبكل الاحترام والتسامح. لكنك هنا أيضاً تبعت الطريقة العامة المألوفة لدى الطبقة المتوسطة اليهودية في معاملتها لأبنائها، أو اتّبعت على الأقل أحكام هذه الطبقة. وفي النهاية فضلت في ذلك أيضاً إحدى إساءات فهمك بخصوص شخصي. فأنت تعتبرني منذ البداية فخراً بي وجهلاً بحياتي الحقيقية، واستنتاجاً من ضعفي مجتهداً بشكل خاص. فعندما كنت طفلاً كنت حسب رأيك أواظب على الدراسة، وفيما بعد كنت أواظب على الكتابة، وهذا غير حقيقي بأي حال، بل يمكن القول بالأحرى بمبالغة أقل بكثير. إنني لم أدرس كثيراً ولم أتعلم شيئاً، وليس غريباً جداً أن يبقى في ذهني شيء ما عبر هذه السنين الطويلة، ومع وجود ذاكرة متوسطة، ولدى قدرة استيعاب ليست بالسيئة، لكن على كل

حال فإن الحاصل الإجمالي من المعرفة ولا سيما من ترسيخ المعرفة تافه جداً قياساً إلى الوقت والمال اللذين أنفقا وسط حياة مريحة هادئة، وأيضاً قياساً إلى جميع الناس تقريباً الذين أعرفهم. وكان الناتج قليل، لكنه مفهوم بالنسبة لي. فمنذ أن وعيت وأنا مهتم أشد الاهتمام بإثبات وجودي الفكري، بحيث أن كل شيء آخر كان سيّان عندي. إن تلاميذ الثانوية اليهود لدينا يستدعون الاستغراب بسهولة، ويتعثر لديهم أبعد الأمور عن الاحتمال والتصديق، لكنني لم أعثر لدى أحد منهم مثل لا مبالاتي الباردة الواضحة، غير القابلة للزوال، الحائرة بشكل طفولي، التي تميل إلى إثارة السخرية الراضية عن نفسها كل الرضا، والتي هي لا مبالاة طفل يتخيل بشكل كاف لكن ببرود. غير أن هذه اللامبالاة كانت هنا أيضاً تمثل الحماية الوحيدة من تدمير الأعصاب بسبب الخوف والشعور بالذنب. ولم يكن يشغلني سوى مشاغل نفسي، لكن هذا الانشغال كان بشتى الطرق مثلاً انشغالي بصحتي. لقد بدأ الأمر بشكل خفيف. وبين الفينة والأخرى كان ثمة تخوّفاً بسبب الهضم، أو تساقط الشعر، أو انحناء في العمود الفقري إلى آخر ما هنالك، وقد تصاعد هذا التخوّف بتدرجات لا تحصى حتى انتهى في آخر المطاف إلى مرض حقيقي. لكنني خلال ذلك لم أكن متأكداً من أي شيء، وكنت بحاجة إلى إثبات جديد لوجودي في كل لحظة، ولا أملك شيئاً على نحو حقيقي ولم يكن هناك شيئاً محدداً بشكل واضح من خلالي وحدي شخصياً، لكنني في الحقيقة كنت ابناً محروماً من الإرث، أصبحت لا أثق طبعاً بالأقرب إليّ أيضاً، جسمي الخاص بي، نَمَوْتُ وطال جسمي دون أن أعرف، وماذا أفعل به، الحمل كان ثقيلاً جداً، واحدودب الظهر، وصرت لا أكاد أجرؤ على

الحركة، أو حتى على ممارسة الرياضة، وبقيت ضعيفاً. ونظرت مندهشاً إلى كل ما لديّ واعتبرته أعجوبة، والشاهد مثلاً كان هضمي جيداً؛ وكان هذا يكفي لعدم إصابتي بعسر الهضم، وبهذا انفتح الطريق أمام كل وهم بوسواس المرض غير الموجود، حتى أخيراً خرج تحت تأثير الجهود الجبارة للرغبة في الزواج (سأعود فيما بعد إلى هذا)، الدم وصل من الرئة، وقد يكون للمنزل في «شون بورن بالاس» نصيبه الكافي في هذا. لكنني لم أكن بحاجة إلى هذا المنزل، إلا لأنني ظننت أنني أحتاج له من أجل كتابتي، وعلى هذه الورقة جزء منها. إن كل هذا إذن لم ينبع من فرط العمل كما تتصور الأمر دائماً، كان هناك أعواماً رقدت فيها وأنا بكامل صحتي على الأريكة بتكاسل وقتاً أكثر مما فعلت أنت طوال حياتك، بما فيه كل أوقات المرض. وعندما كنت أولّي هارباً منك وأنا مشغول للغاية، فقد كنت في الغالب أفعل هذا لكي أرقد في غرفتي. إن مجموع ناتج عملي في المكتب (لكن حيث الكسل لا يلفت النظر كثيراً، كما أنه كان محدوداً بسبب خوفي) وفي البيت، هو ناتج زهيد، ولو كنت خليقاً أن تحيط علماً بذلك، لأثار الأمر ذعرك. ومن المرجّح أنني بطبيعتي لست كسولاً أبداً، لكن لم يكن هناك شيء أقوم به، فحيث كنت أعيش كنت مرفوضاً، محكوماً عليّ، مقموعاً، وكان الهروب إلى مكان آخر يكلفني حقاً غاية الجهد، وهذا لم يكن عملاً، بل كان الموضوع يتعلق بشيء مستحيل بعيد المنال بالنسبة لقدراتي، عدا بعض الاستثناءات الصغيرة.

في هذا الوضع حصلت إذن على حرية اختيار المهنة. لكن هل كنت ما أزال قادراً أصلاً أن أستخدم حقاً مثل هذه الحرية؟ هل كنت ما أزال على ثقة بنفسي أنني أستطيع الظفر بمهنة حقيقية؟ إن تقييمي

لنفسي كان متعلقاً بك أكثر بكثير مما كان متعلقاً بأي شيء آخر، نجاحاً واضحاً على سبيل المثال؛ فهذا كان يمثل قوة للحظةٍ من اللحظات، ولا شيء آخر. لكن من ناحية أخرى، كان ضغطك يدفعني إلى أسفل بقوة أكثر دائماً. كنت أفكر أنني لن أنجح أبداً في الصف الأول في المدرسة الابتدائية، لكن حدث ونجحت، بل وحصلت على مكافأة. أما فحص القبول في المدرسة الثانوية فقد شعرت بأنه من المؤكد أنني لن أجتازه، لكن حدث ونجحت، وشعرت الآن بأنني سأرسب حتماً في الصف الأول من المدرسة الثانوية، لكن لم أرسب واستمر الأمر في الحدوث. لكن لم ينتج عن هذا ثقة، بل على العكس كنت دائماً على قناعة -وفي تعبير الرفض الذي كان يرتسم على وجهك كان لديّ الدليل على ذلك- بأنه كلما نجحت أكثر سينتهي الأمر أخيراً نهاية سيئة أكثر. وغالباً ما كنت أرى في مخيلتي اجتماع الأساتذة المخيف (ليست المدرسة الثانوية سوى المثال الموحد، لكن الحال كان مماثلاً في كل مكان حولي) كيف يجتمعون عندما أكون قد اجتزت الصف الأول، أي في الصف الثاني، وعندما أكون قد اجتزت هذا أي في الصف الثالث وهكذا إلى آخره، يجتمعون لبحث هذه الحالة الفاضحة، كيف تم لي أنا الأقل أهلية والأقل معرفة على كل حال، وعليّ أن أتسلل حتى أصل إلى هذا الصف، الذي من شأنه طبعاً. وقد حصل الآن لفت الانتباه العام إليّ، وكان ينبغي أن يتقيأني، فيرتفع هتاف الابتهاج من جميع العادلين الذين تحرروا من هذا الكابوس.

وبمثل هذه الأوهام، لم يكن من السهل على طفل أن يعيش. لكن بماذا كان يهمني الدرس تحت هذه الظروف؟ من كان قادراً على أن يبعث فيّ شرارة من الاهتمام؟ كان الدرس يهمّني -وليس الدرس

وحده، وإنما كل شيء حولي في هذا السن الحاسم- مثلما يهتم مختلس في مصرف ما زال قائماً على عمله ويرتعد خوفاً من أن ينكشف أمره بأعمال المصرف الجارية الصغيرة التي ما زال يجب عليه كموظف أن ينجزها. هكذا صغير، هكذا بعيد، كان كل شيء إلى جانب القضية الرئيسية. ثم سار الحال حتى امتحان الشهادة الثانوية الذي لم أنجح فيه فعلاً إلا ببعض الغش، بعد ذلك تعثر الحال، الآن أصبحت حراً. كنت على الرغم من انضباط المدرسة الثانوية لا أركّز فكري إلا على نفسي، مثل الآن فقط إذ أصبحت حراً. لم أكن أملك إذن حرية حقيقية في اختيار المهنة. كنت أعلم كل شيء سيكون بالقياس إلى القضية الرئيسية سيّان عندي تماماً، مثلما كانت كل المواد التعليمية في المدرسة الثانوية، فالموضوع هو إذن إيجاد مهنة تسمح أكثر من غيرها بهذه اللامبالاة، دون أن تجرح كبريائي أكثر من اللازم. فكان فرع الحقوق هو الشيء الطبيعي إذن. كانت هناك محاولات قليلة معاكسة تدل على الغرور وعلى الأمل، مثل دراسة فرع الكيمياء لمدة أربعة عشر يوماً، ودراسة الأدب الألماني لمدة نصف عام، لم تفعل شيئاً سوى تعزيز تلك القناعة الأساسية. وهكذا درست الحقوق. وهذا كان يعني أنني كنت في الأشهر القليلة قبل الامتحان أتغذى فكرياً وأنا منهك الأعصاب كثيراً، على نشارة خشب كانت فوق ذلك، آلاف الأفواه قد اجترّتها قبلي، لكن بمعنى ما، استسغت هذا بالذات مثلما استسغت سابقاً بمعنى ما، المدرسة الثانوية، وفيما بعد مهنة الموظفين، إذ أن هذا كله كان يناسب وضعي بشكل تام. وعلى كل حال أظهرت هنا بُعد نظر مدهشاً، وحتى عندما كنت طفلاً صغيراً كان لديّ هواجس واضحة بما فيه الكفاية فيما يتعلق بالدراسات وبالمهنة. ومن

هنا لم أكن أتوقع مساعدة، لكن كنت منذ فترة طويلة قد زهدت واستغنيت.

لكنني لم أعرض أبداً أي بُعد نظر تقريباً فيما يتعلق بأهمية وإمكانية زواجي، كان هذا هو الرعب الأكبر في حياتي، وحتى الآن قد غشاني بشكل غير متوقع بشكل تام تقريباً. كان الطفل قد نما ببطء، وكانت هذه الأشياء بعيدة ظاهرياً عن تفكير الشاب كثيراً، وكان ثمة ضرورة أحياناً التفكير بذلك الآن وبعد ذلك، لكن لم يتبين في الحقيقة أنني أتهيأ لاختبار دائم ومتواصل وحاسم، بل كان بالفعل أشد امتحان قسوةً. لكن في الواقع أصبحت محاولات الزواج أعظم محاولة للنجاة منك، وأحفلها بالأمل، لكن أيضاً كان الإخفاق عظيماً بشكل مماثل.

ولأنني أخفقت في كل شيء في هذه الناحية، فإنني أحاول أن لا أخفق في توصيل محاولات الزواج هذه إليك. ومع ذلك فإن نجاح الرسالة كلها يتعلق بهذا الأمر، إذ في هذه المحاولات كان قد تجمّع، من ناحية كل ما كان لديّ من طاقات إيجابية، ومن ناحية أخرى تجمعت هنا أيضاً وبغضب حقاً كل الطاقات السلبية التي وصفتها كنتيجة من نتائج تربيتك، وهي الضعف والشعور بالذنب ونقصان الثقة بالنفس، وأقامت بكل معنى الكلمة حاجزاً بيني وبين الزواج، وسوف يصعب عليّ إيضاح ما أمعنت التمحيص به، ونقّبت في كل شيء طوال أيام وليال كثيرة، بحيث أن الصورة أصبحت تثير الحيرة في نفسي، ولا يسهّل عليّ الإيضاح سوى سوء فهمك الكامل للموضوع حسب رأيي؛ وتحسين مثل سوء الفهم الكامل هذا لا يبدو صعباً على نحو مفرط جداً.

ابتداءً عليك أن تضع الإخفاق في تحقيق الزواج في المرتبة الأولى ضمن سلسلة إخفاقاتي الأخرى، وليس من شأني أن أعترض على هذا في شيء بحد ذاته، بشرط أن تقبل إيضاحي للإخفاقات. إنه يقف فعلاً في هذه السلسلة، غير أنك تقلل من أهمية الموضوع، وتقلل من أهميته بطريقة تجعلنا عندما نتحدث عن ذلك مع بعضنا البعض، إنما نتحدث في الواقع عن شيئين مختلفين تماماً. وأنا أجرؤ الآن على القول، إنه لم يحدث لك طوال حياتك ما من شأنه أن يكون بالنسبة لك بمثل هذه الأهمية، التي كانت لها محاولات الزواج بالنسبة لي. وأنا لا أقصد بهذا أنك لم تعش شيئاً هاماً بحد ذاته، بل على العكس، كانت حياتك أكثر غنى، وحافلة بالمصاعب والضيق أكثر من حياتي، لكن لهذا السبب بالذات لم يقع لك شيء مماثل لما وقع لي. والحال هو مثلما يكون على أحدهم أن يصعد خمس درجات منخفضة، وعلى آخر أن يصعد درجة واحدة فقط، لكن يبلغ ارتفاع هذه الدرجة، بالنسبة له على الأقل، ارتفاع تلك الدرجات الخمس معاً، ولن يجتاز الأول الخمس فقط، بل مئات وآلافاً أخرى، وسيكون قد عاش حياة عظيمة ومرهقة، لكن ما من درجة صعدها ستكون بالنسبة له بمثل هذه الأهمية التي تكون بها بالنسبة للثاني تلك الدرجة الواحدة، الأولى العالية، التي لا تمكّنه كل طاقاته من صعودها، والتي لا يصل إليها ولا يتجاوزها طبعاً.

إن الزواج وتأسيس أسرة وقبول جميع الأولاد الذين يريدون أن يأتوا والمحافظة عليهم في هذا العالم غير الآمن، وقيادتهم بعض الشيء، هو حسب قناعتي أقصى ما يمكن لإنسان عليه أن ينجح فيه تماماً. والقول إن كثيرين إنما يحققون هذا بسهولة على ما يبدو ليس

دليلاً عكسياً، إذ أولاً لا يتمّ هذا لكثيرين فعلاً. وثانياً: لا يقوم هؤلاء القليلين «بفعله» في الغالب؛ وإنما «يحدث» لهم فقط، وصحيح أن هذا ليس ذلك «الأقصى»، لكنه كثير جداً ومشرّف جداً (ولا سيما أنه لا يمكن التفريق بين «الفعل» و«الحدث» تفريقاً خالصاً). وأخيراً لا يتعلق الموضوع أبداً بهذا الحد «الأقصى»، وإنما بتقارب ما بعيد، لكنه تقارب نزيه، وليس من الضروري الطيران إلى وسط الشمس، لكن الزحف إلى مكان صغير نقيّ على الأرض تضيئه الشمس أحياناً ويمنح المرء بعض الدفء.

كيف كنت مهيّأ لهذا أسوأ ما يمكن؟ وهذا ما يظهر مما ورد حتى الآن. لكن عندما يوجد إعداد الفرد لذلك إعداداً مباشراً، وابتداعاً مباشراً للشروط العامة الأساسية، فإنك ظاهرياً لم تتدخل كثيراً. وغير ذلك ليس ممكناً أيضاً، إذ هنا تقرر عادات الطبقة والشعب والعصر العامة. وعلى كل حال تدخلتَ هنا ولكن ليس كثيراً، إذ أن شرطاً لمثل هذا التدخل لا يمكنه أن يكون سوى ثقة متبادلة قوية، وهذه الثقة كانت تنقص كلينا في الوقت الحاسم قبل ذلك بكثير، ولم يكن تدخلك موفقاً أبداً، وذلك لأن حاجاتنا ومطالبنا كانت مختلفة أشد الاختلاف. إن ما يعجبني لا يؤثر في نفسك، والعكس صحيح، وما هو براءة عندك يمكنه أن يكون ذنباً عندي، والعكس صحيح، وما يبقى لديك بلا أثر يمكنه أن يكون غطاءً لنعشي.

أذكر ذات مساء كنت أتنزّه معك ومع أمي، وكان ذلك في ميدان جوزف بالقرب من مصرف المقاطعات الحالي، وبدأت أتحدث

بمباهاة حمقاء، متأنياً، فخوراً، فاتراً (كان هذا زائغاً)، بارداً (كان هذا حقيقياً)، ومتلعثماً، كما كنت أتحدث عنك في معظم الأحيان. تحدثت عن الأشياء المثيرة، (وعاتبتكما) بأنكما تركتماني دون إرشاد، وأن ما من أحد اهتم بي حتى اضطر أقراني التلاميذ إلى الاهتمام بي، وأنني كنت بالقرب من أخطار كبيرة (قياساً بطبيعتي، كذبت هنا دون حياء كي أظهر بأني جريء، إذ أنني، نتيجة تخوفي، لم أكن املك تصوراً دقيقاً لما يسمى أخطار كبيرة)، لكنني ألمحت في نهاية حديثي بأنني محظوظ وأنني أعرف الآن كل شيء، ولا أحتاج إلى نصيحة، وأن كل شيء صحيح. قبل كل شيء كنت قد بدأت الحديث على كل حال، لأن الموضوع كان يغريني بالحديث على الأقل، ثم حباً بالاستطلاع أيضاً، وأخيراً كي أنتقم لنفسي منكما على وجه من الوجوه لشيء ما. وكما يناسب طبيعتك أخذت الأمر ببساطة للغاية، وقلت فقط إنه يمكنك أن تسدي لي نصيحة. كيف أستطيع النهوض بهذه الأشياء دون خطر، وربما كنت أريد استدراج مثل هذا الجواب بالذات، إذ كان يناسب شهوة الطفل المنتفخ فوق حد الشبع باللحوم وكل أطايب الطعام، غير الناشط جسدياً، المشغول بنفسه أبداً، غير أن حيائي الظاهري خُدش كثيراً، أو ظننت أنه لا بد قد خدش كثيراً، بحيث أنه لم يعد باستطاعتي أن أتحدث معك عن ذلك ضد إرادتي، فقطعت الحديث متشامخاً وبلا حياء.

ليس من السهل تقييم جوابك آنذاك. فمن جهة كان فيه شيء من الصراحة التي تهزّ العصور البدائية على نحو مذهل، لكنه من ناحية أخرى، فيما يتعلق بالدرس نفسه، جواب عصري لكن بغير

وازع. لا أدري كم كنت أبلغ من العمر آنذاك، يقيناً لم أكن قد تجاوزت السادسة عشرة بكثير. لكن بالنسبة لمثل هذا الفتى، كان الجواب في منتهى الغرابة، والتباعد بيننا يتجلى أيضاً في أن هذا الدرس، كان الأول المباشر الشامل الذي تلقيته منك. لكن معناه الحقيقي الذي انغرس فيّ آنذاك ولم أستوعبه تماماً إلا بعد فترة طويلة، فقد كان كما يلي:

«ما نصحتني به كان حسب رأيك وحسب رأيي حينذاك أسوأ ما يوجد، وكونك أردت أن تعمل على ألاّ أجلب إلى البيت جسدياً شيئاً من القذر. وكان هناك أمراً ثانياً، إذ لم تفعل شيئاً سوى أنك قمت بحماية نفسك وبيتك. وكان الأهم بالأحرى أنك بقيت خارج نصيحتك؛ زوجاً، رجلاً نظيفاً، يتعالى عن هذه الأمور، وقد تفاقم الأمر آنذاك بالنسبة لي على الأرجح، لأن الزواج أيضاً كان يبدو لي فحشاً، ولذا لم يكن ممكناً لي أن أطبّق على والديّ ما كنت قد سمعته بشكل عام عن الزواج. وبهذا أصبحتَ أكثر نقاء وارتفعت منزلتك، واعتقدت أنه كان جديراً بك أن تسدي لنفسك قبل الزواج مثلاً نصيحة مماثلة. كانت لدي فكرة غير معقولة أبداً، وهكذا لم يكن يعلق بك إذن أي بقية تقريباً من بقايا قاذورات الدنيا. وأنت بالذات دفعتني، وكأن هذا كان قدري ببعض الكلمات الصريحة إلى هذا القذر. ولو كان العالم لا يتألف إلا مني ومنك، وهذا تصور كان قريباً مني كل القرب، لكان نقاء هذا العالم قد انتهى إذن معك، ومعي بدا القذر بمقتضى نصيحتك. وبحد ذاته لم يكن من المفهوم أن تحكم عليّ هكذا، ولم أستطع أن أعزو هذا سوى إلى الذنب القديم

والاحتقار البالغ من قبلك، وبهذا كنتُ إذن مرة أخرى قد مُسِسْت في أعمق أعماقي وبشكل قاس جداً.

وهنا قد تتوضح أيضاً براءة كل منا أكثر ما تتوضح. (أ) يسدي إلى (ب) نصيحة صريحة تتناسب مع نظرته إلى الحياة، نصيحة ليست محببة جداً، لكنها ولا شك مألوفة في المدينة هذه الأيام أيضاً، وربما تقي من الأضرار الصحية. وليست هذه النصيحة بالنسبة لـ (ب) مقبولة جداً من الوجهة الأخلاقية، لكن؛ لماذا لا يمكن مع مضي الأعوام أن يتخلص من الضرر؟ وبالمناسبة، فإنه لا ينبغي عليه أن يتبع النصيحة أبداً، وعلى أي حال، لا يكمن في النصيحة وحدها سبب يستوجب أن ينهار فوق (ب) عالمه بكامله. ورغم ذلك يحدث شيء بهذه الطريقة، لكن فقط لأن (أ) هو أنت و (ب) هو أنا.

هذه البراءة المشتركة أستطيع أن أراها جيداً بصورة خاصة، لأن صداماً مماثلاً وقع بيننا مرة أخرى بعد نحو عشرين عاماً في ظروف مغايرة كلياً، كواقعة لشيء رهيب، لكنه بحد ذاته أقل ضرراً بكثير، إذ أي شيء كان فيّ أنا البالغ السادسة والثلاثين، ما زال يمكن إصابته بضرر. أعني بهذا حديثاً قصيراً ذات يوم من الأيام المضطربة بعد الإعلان عن رغبتي الأخيرة بالزواج. قد قلت لي تقريباً:

«على الأرجح ارتدت بلوزة ما مختارة، كما تعرف يهوديات براغ أن يفعلن، وبناءً على ذلك قررت طبعاً أن تتزوجها. بل وبأسرع ما يمكن، بعد أسبوع، غداً، اليوم. إنني لا أفهمك، إنك إنسان بالغ، وأنت في المدينة، وضاقت بك السبل حتى تتزوج على الفور أي

واحدة. أليس هناك إمكانيات أخرى؟ إذا كنت تخشى ذلك، فإنني سأذهب بنفسي معك إلى هناك».

لقد تحدثتَ بتفصيل ووضوح أكثر، لكنني لم أعد أذكر التفاصيل، وربما أيضاً تغشت الدنيا أمام ناظري بعض الشيء، وقد أثارت الوالدة اهتمامي أكثر إلى حد ما، وكيف وهي توافقك – صحيح- موافقة كاملة، أخذت على كل حال شيئاً عن الطاولة وخرجت به من الغرفة.

قلّما أهنتني بكلمات بالغة الإهانة، وإنك لم تظهر لي احتقارك أبداً بوضوح أكبر. عندما تحدثت إليّ بشكل مماثل قبل عشرين عاماً، كان المرء خليقاً أن يرى بعينيك حتى بعض الاحترام لابن المدينة ذي البلوغ المبكر، الذي كنت ترى أنه يمكن إرشاده في الحياة بطريقة مباشرة غير ملتوية. واليوم لا يمكن لهذه المراعاة سوى أن تضاعف الاحتقار، إذ أن الفتى الذي قام آنذاك بمحاولةٍ عَلِق فيها، ولا يبدو لك اليوم أكثر خبرة، وإنما أكثر بؤساً بعشرين عاماً. واختياري فتاة لم يكن يعني لك شيئاً البتة، كنتَ دائماً تقمع (على نحو غير مقصود) قدرتي على اتخاذ القرار، وتظن الآن (على نحو غير مقصود) أنك تعلم ماذا كانت قيمة هذه القدرة. ومن محاولاتي لإنقاذ نفسي في اتجاهات أخرى لم تكن تعلم شيئاً عنها، لذا لم يكن في مقدورك أن تعرف شيئاً عن تسلسل الأفكار التي كانت قد قادتني إلى محاولة الزواج هذه، وكان ينبغي عليك أن تحاول تخمينها، وطبقاً لمجموع الأحكام التي كانت لديك عليّ، كان الحدس الأكثر فظاعة وفظاظة ومدعاة للسخرية. ولم تتردد لحظة في أن تقول لي ذلك بمثل هذه الطريقة.

والعار الذي أوقعتني فيه، كان لا شيء عندك قياساً بالعار الذي من شأني ومن خلال زواجي أن أدنس به اسمك حسب رأيك.

ويمكنك حقاً أن تجيبني عن بعض الأمور فيما يتعلق بمحاولاتي للزواج، وقد فعلتَ ذلك أيضاً، بأنك لا تستطيع أن تحترم كثيراً قراري عندما فسخت خطوبتي مع (ف)، وأعدت عقدها مرتين، وعندما ذهبت مع الوالدة على غير جدوى إلى برلين من أجل الخطوبة وما شابه ذلك، كان هذا كله صحيحاً، لكن كيف حدث ذلك؟

إن الفكرة الأساسية لكلتا محاولتي الزواج، كانت صحيحة تماماً، تأسيس بيت زوجية والاستقلال بالذات. وهذه فكرة محببة إليك، لكنها تخرج في الواقع مثل لعبة الأولاد التي يمسك بها أحدهم يد الآخر، بل ويضغطها وهو يقول:

«آه، لتذهب، اذهب، لماذا لا تذهب؟».

لكن الأمر الذي زاد تعقيداً في حالتنا هو أنك كنت دائماً تعني كلمة «لتذهب» بصدق، إذ أنك كنت دائماً أيضاً تقبض عليّ أو الأصح تقمعني، وذلك دون أن تعرف الأمر، وإنما فقط بحكم طبيعتك.

صحيح أن اختيار كلتا الفتاتين كانتا صدفة، لكنه كان اختياراً موفقاً. ومرة أخرى كان دلالة إساءة فهمك الكاملة لي، وأنك تستطيع أن تظن أنني أنا شديد الخوف، متردد، متهم، عاقد العزم على الزواج بهزة واحدة، افتتاناً بتنورة مثلاً. لقد كان من شأن كل زيجة من الزيجتين أن تكون بالأحرى زيجة يمليها العقل، وهذا يعني أن كل

طاقة من طاقات تفكيري، بذلت على الخطة ليلاً نهاراً في الحالة الأولى طوال سنوات، وفي الحالة الثانية طوال أشهر.

وما من فتاة من الفتاتين خيبت أملي، لكنني خيبت أمل الاثنتين. وحكمي عليهما اليوم هو نفسه آنذاك، عندما أردت الزواج منهما.

كما أن الحال ليس أنني لدى محاولة الزواج الثانية، تجاهلت تجارب المحاولة الأولى، أي أنني كنت مستهتراً. لقد كانت الحالتان متباينتين، والتجارب السابقة بالذات استطاعت أن تعطيني أملاً في الحالة الثانية التي كانت بعامة تبشر بالنجاح أكثر. وهنا لا أريد أن أتحدث عن تفاصيل.

إذن لماذا لم أتزوج؟ كان ثمة عوائق مفردة مثلما هو الحال في كل مكان، لكن الحياة تتضمن تقبل مثل هذه العوائق. غير أن العائق الجوهري المستقل مع الأسف عن الحالة المفردة، كان يبدو كأنني غير قادر، عقلياً على الزواج. ويعبر هذا عن نفسه، بأنني منذ اللحظة التي أعتزم فيها على الزواج لا أعود أستطيع النوم، ويروح رأسي يتوهج ليل نهار، إنها ليست حياة بعد الآن، وأروح أتمايل يائساً. ليست الهموم هي التي تسبب هذا في الحقيقة. صحيح أن ثمة أيضاً هموماً كثيرة تبعاً لبطئي وحذري ودقتي، لكنها ليست كل شيء، وصحيح أن هذه الهموم تكمل مثل الديدان، العمل في الجثة، لكنني أصبت إصابة حاسمة من شيء آخر، إنه الضغط العام الناتج عن القلق والضعف واحتقار الذات.

والآن سوف أحاول إيضاح الأمر بإسهاب: هنا في محاولة الزواج يلتقي في علاقاتي معك شيئان متناقضان ظاهرياً لقاءً قوياً،

مثلما لا يلتقيان في مكان آخر. لا ريب أن الزواج هو الضمانة الأكثر استقلالاً وتحرير الذات. لقد كنتُ خليقاً أن يكون لديّ أسرة، وهذا أسمى ما يمكن للمرء أن يحققه حسب رأيي، إذن أسمى ما حققته أنت أيضاً، كنتُ خليقاً أن أكون نداً لك، وكان من شأن كل عار قديم وجديد أبدي، وكل طغيان، أن يصبح مجرد تاريخ مضى. وكان من شأن هذا أن يكون شيئاً باهراً، لكن هنا تكمن المشكلة، فالأمر شديد للغاية، ولا يمكن تحقيق هذه الدرجة من الشدة. والحال هي كما لو أن احدهم كان سجيناً، وهو لا يعقد النية على أن يفرّ فقط، الأمر الذي قد يكون ممكن المنال، وإنما يعقد النية بالإضافة إلى ذلك، وفي الوقت نفسه على إعادة بناء السجن وتحويله إلى قصر صيفي، لكنه إذا فرّ لا يستطيع أن يعيد البناء، وإذا أعاد البناء لا يستطيع أن يفرّ. وإذا أردت، في علاقة الشقاء الخاصة التي أتواجد فيها معك، أن أصبح مستقلاً، فإنه ينبغي عليّ أن أفعل شيئاً لا علاقة له بك أبداً إن أمكن. صحيح أن الزواج أعظم شيء، ويمنح استقلالية مشرّفة كل الشرف، لكنه في الوقت نفسه ذو علاقة وثيقة بك. لذا فإن الرغبة بالخروج من هنا فيها شيء من الجنون، وكل محاولة يُعاقَب عليها بهذا تقريباً.

وهذه العلاقة الوثيقة بالذات تغريني أيضاً جزئياً بالزواج، وإنني لأفكر بتعادل الندّين، هذا الذي من شأنه أن ينشأ بيننا، وتدركه كما لا تدرك تعادلاً آخر، ويكون تعادلاً جميلاً، لأنني أصبح ابناً حراً، شاكراً، بريئاً، مخلصاً، وفي مقدورك أن تصبح أباً منشرح القلب غير ظالم، أباً عطوفاً راضياً. ولكن من أجل تحقيق هذا الهدف، لا بد من محو كل ما حدث من صفحة الوجود، وهذا يعني شطب أنفسنا.

لكن كما نحن، تظل أبواب الزواج مغلقة أمامي، لكون الزواج مجالك الخاص بك. وأحياناً أتصور خريطة العالم مفتوحة وأنت ممدد فوقها بالعرض، ومن ثم يبدو لي أنه بالنسبة لحياتي لا يدخل في الحسبان، سوى المناطق التي لا تغطيها أو التي لا تقع ضمن نطاقك. وطبقاً لتصوري عن حجمك، ليست هذه المناطق كثيرة ولا تمنح السلوى كثيراً، والزواج بصفة خاصة ليس من هذه المناطق.

إن مجرد عقد هذه المقارنة يدلّ على أنني لا أريد القول إطلاقاً، إنك من خلال كونك قدوة لي، إنما قمت بمنعي من الزواج مثلما فعلت مثلاً في المتجر. بل العكس هو الصحيح، رغم كل تشابه بعيد، فقد كان أمامي في زواجكما زواج نموذجي في كثير من الأمور، نموذجي في الوفاء وفي العون المتبادل، وفي عدد الأولاد، وحتى عندما كبر الأولاد وراحوا يكدرون الوئام دائماً أكثر، لكن هذا الزواج ظل نموذجياً لم يمس. وربما بناءً على هذا المثال تشكل مفهومي السامي عن الزواج، وكان هناك أسباب أخرى لكون الرغبة بالزواج بلا قوة. وكانت هذه أسباب تكمن في علاقتك مع الأولاد، هذه العلاقة التي هي موضوع الرسالة بكاملها.

هناك رأي يقول: إن الخوف من الزواج إنما يعود إلى أن المرء يخشى أن يكيل أولاده له فيما بعد الصاع صاعين، انتقاماً للآثام التي اقترفتها نفسه بحق والديه. وأظن أن هذا ليس ذا أهمية كبيرة للغاية في حالتي، إذ أن شعوري بالذنب يرجع بطبيعته إليك في الحقيقة، وفكرة تفريده تسيطر عليه أيضاً أكثر من اللازم، بل إن هذا الحس بالتفرد هو جزء من طبيعته المؤلمة، ولا يمكن تصور تكراره. وعلى كل حال،

ينبغي أن أقول: إن مثل هذا الابن الصامت، المكتئب، القاسي، الهزيل، المتداعي، خليق بأن يكون ابناً لا يطاق بالنسبة لي، وخليق بي في حال عدم وجود إمكانية أخرى، أن أهرب منه، أهاجر، كما كنت تريد أن تفعل أولاً بسبب زواجي. ومن الممكن إذن أن يكون هذا أيضاً قد أثر عليّ بعدم قدرتي على الزواج.

لكن الأهم بكثير هو القلق حولي. ويجب فهم هذا كما يلي:

لقد ألمحت إلى أنني في الكتابة وفيما يتصل بها، قد قمت بمحاولات استقلالية، ومحاولات فرار صغيرة لم تسفر عن نجاح يذكر، ولن تؤدي بالكاد إلى شيء، وأمور كثيرة تثبت لي ذلك. ورغم ذلك فإن من واجبي أو بالأحرى أن حياتي تكمن في أن أسهر على هذه المحاولات، ولا أدع خطراً يمكنني أن أصده، لا بل لا أدع احتمال وقوع مثل هذا الخطر يقترب منها. والزواج هو احتمال مثل هذا الخطر، غير أنه احتمال لأكبر ترقية، لكن بالنسبة لي يكفي أنه احتمال خطر. وكيف يكون خليقاً بي أن أفعل لو كان خطراً حقاً؟ كيف يمكنني أن أواصل الحياة في الزواج مع الشعور بالخطر؟ هذا الشعور الذي قد لا يكون قابلاً للإثبات ، لكنه على كل حال غير قابل للإنكار! صحيح أنني أستطيع أن أتأرجح إزاء ذلك، لكن المنفذ الأخير مؤكد، يجب عليّ أن أستغني عنه. ومثال العصفور في اليد والحمامة على السطح، لا يصح هنا إلا قليلاً جداً، في اليد لا أملك شيئاً، وعلى السطح كل شيء، ورغم ذلك ينبغي عليّ -هكذا تقرر ظروف الصراع وضرورة الحياة- أن أختار اللاشيء، وعلى نحو مشابه، كان عليّ أن أختار عند اختيار المهنة أيضاً.

لكن أهم عائق للزواج هو الاقتناع الثابت، الذي لا يُزال، بأن حفظ الأسرة أو حتى القيام بشؤونها إنما يتطلب بالضرورة كل ما عرفته عنك، أي كل شيء معاً، الخير والشر كما اجتمع الحال عضوياً فيك، ومثل القوة والسخرية من الآخرين، الصحة وقدر من الشطط، موهبة في الحديث وقصور الثقة بالنفس، وعدم الرضا عن كل إنسان آخر، السيادة والطغيان، الفراسة وسوء الظن عند معظم الناس، ثم فضائل أيضاً دون أي مثالب، مثل الجد والمثابرة وسرعة البديهة والجسارة. ومن كل هذا لم أكن أملك شيئاً تقريباً بالقياس إليك، أو لم أكن أملك إلا أقل القليل، وبهذا القليل أردت أن أجرؤ على الزواج، في حين كنت أرى أنك حتى أنت، كان عليك أن تكافح في الحياة الزوجية كفاحاً مريراً، وحتى أنك فشلت مع الأولاد؟ وطبعاً لم أطرح هذا السؤال على نفسي بشكل واضح وصريح، ولم أجب عليه بشكل واضح وصريح، وإلا كان التفكير المألوف قد استحوذ على الموضوع وأظهر لي رجالاً آخرين مغايرين لك (لتسمية واحد من الجوار يختلف عنك كل الاختلاف: الخال ريتشارد) ومع ذلك تزوجوا، وعلى الأقل لم ينهاروا تحت أعباء الزواج، الأمر الذي هو كبير للغاية وكان خليقاً أن يكفيني جداً. لكن هذا السؤال لم أطرحه، وإنما عشته منذ طفولتي. فأنا لم أمتحن نفسي إزاء الزواج فقط، وإنما إزاء كل صغيرة وكبيرة. وإزاء كل صغيرة وكبيرة كنت تقنعني بعجزي، وذلك من خلال مثالك ومن خلال تربيتك، كما حاولت أن أصف؛ وما كان صحيحاً لدى كل صغيرة ويعطيك الحق. كان لا بد طبعاً أن يكون صحيحاً بشكل هائل أمام الأعظم، أي أمام الزواج. قبل محاولات الزواج نشأ مثلما ينشأ تاجر مثلاً، تاجر يرزح تحت

متاعب وإحساس داخلي سيء، لكن بدون محاسبة دقيقة، ولا يحسب حساب الغد. لقد حقق بعض الأرباح الصغيرة وراح بسبب ندرتها، يلاعبها في مخيلته ويبالغ فيها، وما عدا ذلك لم يحقق سوى خسائر يومية. كل شيء يجري تسجيله، لكن دون موازنة حسابه قط. والآن يأتي إلزام تسوية الحساب، وهذا يعني محاولة الزواج. ولدى المبالغ الضخمة التي يجب هنا حسابها، كان الأمر فيها لو لم يكن قد تحقق أصغر ربح، إذ كان كل شيء هو مجرد دَين كبير. والآن تزوج دون أن تصاب بالجنون! وهكذا تنتهي حياتي حتى الآن معك، وهي تحمل في ثناياها مثل هذه الآمال للمستقبل.

وإذا نظرت نظرة شاملة إلى تعليلي للخوف الذي أستشعره أمامك، فإنه يمكنك أن تجيب: إنك تدّعي أنني لا أبذل جهداً عندما أفسّر علاقتي بك من خلال ذنبك وحده، لكنني أظن أنك رغماً عن الجهد الظاهري، لا تجعل الموضوع أكثر صعوبة لك وإنما أكثر ربحاً. ترفض ابتداءً أنت أيضاً كل ذنب ومسؤولية عليك، وطريقتنا في هذه هي نفسها. لكنني في حين أعزو الذنب الوحيد إليك، وذلك بشكل صريح كما أعني أيضاً، فإنك تريد أن تكون «فائق الذكاء» و«فائق الحنوّ»، في الوقت نفسه، وتبرّئني أيضاً من كل ذنب. وطبعاً لا يتمّ لك هذا الأمر الأخير سوى ظاهرياً (وأكثر من ذلك لا تريد أيضاً)، ويتضح ما بين السطور رغم كل «الأقوال» عن الماهية والطبيعة والتناقض والعجز، إنني أنا الذي كنت في الحقيقة الشخص المهاجِم، في حين أن كل ما كنت تفعله لم يكن سوى دفاع عن النفس. والآن حققت من خلال عدم إخلاصك ما يكفي، حيث أنك برهنت على ثلاثة أمور، أولاً: أنك بريء، وثانياً: أنني مذنب، وثالثاً: أنك

مستعد، دلالة على عظمتك، ليس لأن تعذرني فحسب، وإنما، الأمر الذي هو أكثر وأقل، لأنك تريد التدليل على الموضوع وتصديقه بنفسك، بأنني -خلافاً للحقيقة- بريء أيضاً. وجدير بهذا أن يكفيك الآن، لكنه ما زال لا يكفيك. إذ أنك والحق وضعت في رأسك أنك تريد أن تعيش أولاً وآخراً.

إنني أعترف أننا نتصارع مع بعضنا البعض، لكن هناك نوعين من الصراع: صراع الفرسان، حيث تتبارى قوى خصوم مستقلين، كل يبقى لنفسه، يخسر لنفسه، ينتصر لنفسه. وصراع الحشرة، هذه الحشرة التي لا تلدغ فحسب، وإنما تقوم على الفور، من أجل الحفاظ على حياتها بمص الدم. هذا هو الجندي المحترف الحقيقي، وهذا هو أنت، غير عملي في الحياة، ولكن لكي تتكيف فيها متمتعاً برغد العيش ودون لوم الذات، تُظهر أنني أخذت منك كل كفاءتك في الحياة ووضعتها في جيبي. وماذا يهمك الآن إذا لم تكن كفؤاً، فأنا أتحمل المسؤولية، أما أنت فإنك تتمطى بهدوء وتدعني أقودك، جسدياً وروحياً عبر الحياة.

ولدي مثال على ذلك: عندما أردت مؤخراً أن تتزوج، كنت في الوقت نفسه، وهذا ما تعترف به في هذه الرسالة، لا تريد أن تتزوج، لكنك كنت تريد حتى لا تتعب نفسك، أن أساعدك في تحقيق رغبتك في عدم الزواج، وذلك بأن أمنعك من هذا الزواج بسبب «العار»، الذي من شأن الزواج أن يعود به على اسمي. لكن هذا لم يخطر ببالي أبداً. فأنا أولاً: في هذه كمثل كل شيء، فقط أريد أن أوجه أخرى أن «أكون عائقاً في طريق سعادتك»، وثانياً: لا أريد أن أسمع

أبداً مثل هذا اللوم من ابني. ولكن هل تساعدني في كبح النفس، الذي تركت لك به حرية الزواج؟ لا شيء على الإطلاق. ولم يكن نفوري من الزواج خليقاً أن يمنعه، بل على العكس، كان الأمر سيكون بحد ذاته حافزاً آخر لك حتى تتزوج الفتاة، إذ أن «محاولة الهروب» على حد تعبيرك كانت تصبح بهذا كاملة. وسماحي بالزواج لم يمنع مآخذك، إذ أنك تدلل على أنني السبب على كل حال في عدم زواجك، لكنك في الحقيقة لم تبرهن هنا وفيما عدا ذلك، بالنسبة لي، شيئا آخر، سوى أن جميع مآخذي كانت حقيقة، وأن مأخذاً صحيحاً بشكل خاص قد غاب من بينها، وهو عدم الصدق، والتزلّف والتطفل. وإذا لم أكن مخطئاً كثيراً، فإنك تتطفل عليّ أيضاً بهذه الرسالة في حد ذاتها.

وردي على ذلك أجيبك -أن هذا الاعتراض كله، الذي يمكن أن يتحول جزئياً ضدك- لا يأتي منك، لكنه مني. حتى عدم ثقتك بالآخرين ليست كبيرة مثل عدم ثقتي بنفسي التي قمت بتربيتي عليها. وأنا لا أنكر صحة الاعتراض إلى حد ما، هذا الاعتراض الذي يساهم أيضاً في حد ذاته في تصوير علاقتنا. وطبعاً لا يمكن للأشياء في حقيقة الأمر أن تتناغم مع بعضها البعض مثلما تفعل الأدلة في رسالتي، فالحياة هي أكثر من لعبة صبر، لكن بالتصحيح الذي ينشأ من هذا الاعتراض -والذي لا أستطيع ولا أريد أن أقوم به بالتفصيل- يجري التوصل حسب رأيي إلى شيء قريب جداً من الحقيقة، ليستطيع أن يهدئ من روعنا كلينا بعض الشيء، ويجعل حياتنا وموتنا أكثر سهولة.

من أقوال فرانز كافكا

- يبدو لي أنني لن أسقط في النهاية تحت وطأة الكفاح بل تحت وطأة الفرح.
- الكتابة شكل من أشكال الصلاة.
- العالم السليم لا يوجد إلا في الداخل.
- إنه لمما يؤلم غاية الألم أن يُحكم المرءُ بناءً على قوانين لا يعرفها.
- سوف أكتب رغم كل شيء، سوف أكتب على أي حال. إنه كفاحي من أجل المحافظة على الذات
- على الكتاب أن يكون الفأس التي تكسر البحر المتجمد فينا.
- كيف أصبحت الشخص الذي أنا هو؟ هل أنا نفسي فعلاً، أم صنع مني الآخرون بالأحرى الشخص الذي أنا هو؟
- لا أحد يرغب في إجراء إصلاحات كثيرة مثلما يرغب الأطفال.
- لا يزال الليل ليلاً أكثر من اللازم.
- ليس لدي اهتمام أدبي، وإنما أتألف من أدب. لست شيئاً آخر، ولا أستطيع أن أكون شيئاً آخر.
- إذا كان الكتاب الذي نقرؤه لا يوقظنا بخبطة على جمجمتنا، فلماذا نقرؤه إذن؟
- كل إنجازاتي حتى الآن هو نجاحي في أن أكون وحيداً .
- اعتدتُ أن أحلّ المشاكل التي تعترضني من خلال السّماح لها بأن تفترسني.
- يعلم الله أني حاولت أن أكون مثلكم، أيها الغارقون في القطيع، وها أنا يائس، يائس ومشوه بالكامل، مخنوق ، وكأنما أحدهم حشر السماوات في حلقي.
- أول علامات بداية الفهم أن ترغب في الموت.
- من يبحث لا يجد، أما من لا يبحث فسوف يتم العثور عليه.
- غالباً ما يكون المرء أكثر أماناً وهو في القيود أكثر مما يكون وهو حر طليق.
- مغزى الحياة يكمن في أنها تتوقف.
- تَضِل الأديان عندما يضل الأفراد.
- أنت حر، وذلك هو سبب ضياعك.
- يهب الله الجوز، لكنه لا يقشره.

- يهب الله الجوز، لكنه لا يقشره.



A LETTER TO THE FATHER

رسائل



فرانز كافكا رسالة إلى الوالد

كافكا لا يوجّه هذه الرسالة إلى أبيه حسبُ، بل يوجّهها إلى معظم الآباء في العالم دون استثناء، ولذلك يقول: « أبدأ هذه الرسالة إذن دون ثقة بالنفس آملا فقط أيّها الوالد أنّك ما زلت تحبّني رغم كلّ شيء، وأنّك تقرأ بصورةٍ أفضل ممّا أكتب »، فيبدأ بعرض الصراع غير المباشر بينهما، بين أبٍ متسلّط يرى في تقزيم ابنه قوّةً له، بل يكاد يستمدّ قوّته من ضعف ابنه، وبين ابنٍ ضعيف يسعى لإثبات شخصيّته وقوّته ككائنٍ له خصوصيّته، وهنا تكمن متعة قراءة هذه الرسالة الطويلة الّتي تتعرّض لكلّ التفاصيل حتّى المحرج منها، في هذه العلاقة الحسّاسة بين الأب وابنه في أسرة ألمانيّة.

وهكذا يرى **كافكا** أنّ والده سبب كلّ بؤس يصيبه، حتّى إنّه هو الّذي يدفعه للكتابة، ويقول: « أنت خلف كلّ كتاباتي. لقد قلت فيها ما لا أستطيع أن أقوله وأنا على صدرك ». لكن لنا أن نتساءل: ما رأي الوالد، وما هو ردّه على هذه الرسالة، الّتي ذاعت في العالم كلّه وكتب عنها الآلاف من رسائل الدكتوراة والدراسات والتحليلات، واقتبس بعض جملها كبار العلماء في مجال تربية الطفل؟

يقول **هرمان** والد **فرانز كافكا**: « إنّك تدّعي أنّني لا أبذل جهدًا عندما أفسّر علاقتي بك من خلال ذنبك وحده. لكنّني أظنّ أنّك رغمًا عن الجهد الظّاهريّ لا تجعل الموضوع أكثر صعوبةً لك، وإنّما أكثر ربحًا. أفلا ترفض أنت كلّ ذنب ومسؤوليّة عليك؟ فطريقتنا في هذا هي نفسها إذن.

ISBN 978-6589-09-014-4



الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 منشورات 2017
الغلاف: 95297109 7 00962